معالم العلاقات
الإنسانية في الإسلام

بقلم

الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح



معالم العلاقات الإنسانية في الإسلام

الحمد الله رب العالمين الذي كرم الإنسان وفضله على كثير ممن خلق، وأمر بالتعاون والتعايش وتبادل المنافع.

والصلاة والسلام على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

أما بعد:

فإن الباحث والدارس في السمات التي اتسم بها الإسلام. يجد أنها كانت ولا زالت - عوامل جذب - ترشد من اقترب منها، أو بحث فيها، أو تعرف عليها. إلى أن الإسلام دين يعمل لطمأنة الإنسانية، ونشر الوئام بين البشر.

ولم تعرف البشرية دينا جمع بين حقائق الحق، وأطراف الخير، وألوان الفضيلة. كما جاء في الإسلام.

ولقد فهم المسلمون الأولون هذا. فدرجوا في مسالك الكمال، وصعدوا في مراقي العلا. يشمل الصفاء كل نواحيهم، ويعمهم الحب، والتفاهم.

والقارئ لمعالم الإسلام في منابعها الأصلية، وسماتها البارزة، يجد أن الإسلام بمنأى عن كل ما من شأنه إعنات الإنسان وإرهاقه، ويجد أن الإسلام يسعى للأخذ بيد الإنسان في هذه الحياة.

وإذا كان العصر الذي نعيش فيه. هو عصر العلاقات الإنسانية.

الذي لا يتطلب مواطناً أصح، وأصلح من الإنسان الذي يوقن بالأسرة الإنسانية، فإن الذي -لا شك فيه - أن هذا العصر سوف تسعده مساهمة المسلمين الفاعلة البانية.

والإسلام الحنيف دعا إلى المعالم الإنسانية في كثير من آيات القرآن. كما دعا إلى الحوار الذي يحقق الأمن، والاطمئنان للمجتمعات الإنسانية.. ولا شك أن الثوابت الإسلامية في العلاقات الإنسانية. ساهمت مساهمة فعالة في إعطاء المجتمعات الإنسانية ما تستحق من الاطمئنان.

وإذا كانت المجتمعات الإنسانية. تسعى لمزيد من التواصل، والتعايش والتعاون. في ظل عوامل اللقاء، والتقدم العلمي الهائل. فإن الإسلام الحنيف. بما له من قيم ومعالم. يدعو إلى كل ما من شأنه أن يأخذ بيد الإنسانية إلى التقدم الثقافي والحضاري.

وإذا كانت رسالة الإسلام وصلت بين قديم الحضارات وجديدها. بما حفظت من تراث الأقدمين، وبما أضافت إليه من إنسانية الحضارة في جوهرها، وقيمها، وتصويرها، وأهدافها. فإن الرسالة الإسلامية مؤهلة لأن تساهم في معالم اللقاء الإنساني.

لأن الأمة الإسلامية. تملك رصيداً ضخماً من الفلسفة الفاعلة. التي تبني المجتمعات، وتسير بها إلى الطريق الصحيح الذي يبعدها عن الصراع والصدام.

لأن الصراع بين المجتمعات لا يضع الأفضل لكل الأطراف. وربما تكون مجموعة القوى المفضلة للصراع تركض وراء الوهم. أو تفضل

مشاهدة نشوة الغرور.

وقد يكون معلوماً.. أن الأمة الإسلامية تملك شخصية مصبوغة بصبغة خاصة وموسومة بميسم معين. هو ميسم الإيمان وصبغة الإسلام، والالتزام بحدوده.

وشخصية الأمة الإسلامية الملتزمة تتقوم بمقوم يتكون منها وجودها، وتكتمل به في تفاعلها، وتوازن حركتها. هذا المقوم هو: الصبغة الإنسانية الواضحة للشخصية الإسلامية، وبهذا تكون الأمة الحارس اليقظ للمعاني الإنسانية وتلك معالم جاءت في العلاقات الإنسانية لتكون علامات مضيئة في إظهار حقيقة التعايش الذي يدعو إليه الإسلام.

والله الموفق

أ. د أحمد عبد الرحيم السايح



الفصل الأول

معالم إسلامية

المبحث الأول: فطرية الإسلام

لما كانت الفطرة، فطرية الإسلام، عاملاً من العوامل الذاتية في الإسلام. التي دفعت الناس إلى الإقبال على الإسلام، كان علينا أن نجلي مفهوم الفطرة في مفاهيم أهل اللغة، ومفاهيم أهل الإصطلاح.

يقول ابن منظور: فطر الله الخلق يفطرهم: خلقهم وبدأهم. والفطرة الابتداء والاختراع. وفي التنزيل العزيز ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [**فاطر**: ١]. قال ابن عباس - رضى الله عنهما -: ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي: أنا ابتدأت حفرتها[١].

وذكر ابن عباس - رضى الله عنهما -: أنه سمع أعرابياً يقول: أنا أول من فطر هذا، أي ابتدأه[٢]. والفطرة - بالكسر -: الخلقة[٣]. قال الشاعر

هون عليك فقد نال الغنى رجل

في فطرة الكلب لا بالدين والحسب[٤]

---

(١) تفسير ابن كثير، ج ١، ص ٥٢٩.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص ٣٤٣٣مادة (فطر).

(٣) المرجع السابق، ج٥، ص ٣٤٣٣ .

(٤) المرجع السابق، ج٥، ص ٣٤٣٣.

وفي القرآن الكريم جاء على لسان إبراهيم – عليه السلام –: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [**الأنعام**: ٧٩].

والفطرة ما فطر الله عليه الخلق من المعرفة به [١].

يقول الراغب الأصفهاني: وفطر الله الخلق. هو إيجاده الشيء وإبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال. فقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [**الروم**: ٣٠] إشارة منه إلى ما فطر، أي: أبدع وركز في الناس من معرفته تعالى. وفطرة الله: هي ما ركز فيه من قوته على معرفة الإيمان [٢].

لأن من معاني الفطرة ذلك الإقرار بالرب، نتيجة الميثاق، الذي أخذه الله من ذرية أدم – عليه السلام –.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [**الأعراف**: ١٧٢].

فهذا يعني: أن الخلق مجبولون على المعرفة بالله فهو شيء يجدونه في أنفسهم، لا يستطيعون له دفعاً.

وإذا أصابتهم ضراء دعوا الله ورفعوا إليه أكفهم، فمن أين جاءهم هذا التوجه إلى الخالق. وأنه هو الذي يستطيع رفع الضر؟ إنها الفطرة المركوزة فيهم، ولولا أن في النفس قابلية لمعرفة الله ومحبته، والذل له. لما استطاع التعليم والتذكير أن يؤثرا فيها. فقوة

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج ٥، ٣٤٣٣ مادة (فطر).

(٢) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص ٣٨٢، ط: دار المعرفة، بيروت..

المحبة لا تأتي من الخارج، وإنما هي شيء في الداخل. ولما دعا الرسل أقوامهم إلى عبادة الله، دعوهم إلى من يعرفونه، ولم ينكر دعوتهم أحد [1].

وأما إنكار فرعون، فهو إنكار العارف، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وكما قال له موسى – عليه السلام: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وبعض العلماء. يذكر: أن المراد بالفطرة: الإسلام،ويستدل هؤلاء بقول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

يقول ابن كثير: فسدد وجهك، واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم، التي هداك الله لها، وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة، التي فطر الله الخلق عليها، فإنه – تعالى – فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره، كما في قوله تعالى ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] [2].

ويقول الزمخشري في تفسيره: " فقوم وجهك له، وعدله غير

---

(١) محمد سليمان، من مشكاة النبوة، مقال بمجلة البيان، العدد السابع عشر، ص ٢٠، الصادر في شعبان ١٤٠٩هـ، عن المنتدي الإسلامي بلندن.

(٢) انظر ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٣٢٠ .

ملتفت عنه يميناً ولا شمالاً، وهو تمثيل لإقباله على الدين، واستقامته عليه، وثباته واهتمامه بأسبابه. فإن من اهتم بالشيء، عقد عليه طرفه، وسدد إليه نظره، وقوم له وجهه، مقبلاً به عليه "[1].

و ﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ**﴾ أي: الزموا فطرة الله، أو عليكم فطرة الله، والفطرة: الخلقة، ألا ترى إلى قوله: ﴿**لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**﴾. والمعنى: أنه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام، غير نائين عنه، ولا منكرين له، لكونه مجاوباً للعقل، مساوقاً للنظر الصحيح، حتى ولو تركوا، لما اختاروا عليه ديناً آخر.[2]

ويقول سيد قطب: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا**﴾ أي: واتجه إليه مستقيماً فهذا الدين هو العاصم من الأهواء المتفرقة، التي لا تستند على حق، ولا تستمد من علم، إنما تتبع الشهوات والنزوات بغير ضابط ولا دليل. أقم وجهك للدين حنيفاً مائلاً عن كل ما عداه، مستقيماً على أمره دون سواه.[3].

﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**﴾[**الروم**: ٣٠]. وبهذا يربط بين فطرة النفس البشرية، وطبيعة هذا الدين، وكلاهما من صنع الله، وكلاهما موافق لناموس الوجود، وكلاهما متناسق مع الآخر في طبيعته واتجاهه.

والله الذي خلق القلب البشري، هو الذي أنزل إليه هذا الدين،

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج ٣، ص ٢٠٤.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ج ٣، س ٢٠٤، بتصرف واختصار.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٥، ص ٢٧٦٧.

ليحكمه ويصرفه،ويشفيه من المرض، ويقومه من الانحراف، وهو أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير، والفطرة ثابتة، والدين ثابت، فإذا انحرفت النفوس عن الفطرة، لم يردها إليه إلا هذا الدين المتناسق مع الفطرة، فطرة البشر، وفطرة الوجود "(١).

فأنت ترى من خلال تفسير ابن كثير، والزمخشري، وسيد قطب: أن الفطرة هي الإسلام.

عن أبي هريرة – رضى الله عنه قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم: " ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا ﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**﴾[**الروم**: ٣٠] قالوا يارسول الله: أفرأيت من يموت صغيراً ؟ قال: " الله أعلم بما كانوا عاملين"(٢).

فالرسول –صلى الله عليه وسلم – يرشدنا إلى أن تغيير هذه الفطرة يقع بتأثير الوالدين، أو تأثير البيئة، ولذلك شبه المولود بالبهيمة العجماء، التي تولد سليمة، مجتمعة الخلق، لا تغيير فيها ولا تشويه، ولكن الناس يغيرون خلقها بعدئذ فيشقون آذانها أو غير ذلك.

فالفطرة لو تركت دون تأثير خارجي، سواء من الوالدين أو

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٧٢٧.

(٢) رواه البخاري باب ما قيل في أولاد المشركين ج١ ص ٤٦٥ رقم الحديث ١٣٠١٩ ورواه مسلم. باب معنى كل مولود ج ٤ ص ٢٠٤٧ رقم ٢٦٥٨

غيرهم، وأزيحت عنها العوائق من الشبهات، والشهوات، فهي مقتضية بذاتها لدين الإسلام [١].

ويقول أحد المفكرين: وعامة السلف، وجمهور المحدثين، على أن المراد بالفطرة في الحديث: الإسلام. وقالوا: إن فطرة الله التي فطر الناس عليها هي: الإسلام، وذكر هذا عن كثير من السلف في تفسير الآية السابقة [٢]. قالوا: دين الله هو الإسلام، والأدلة على ذلك كثيرة:

أولاً: أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لما ذكر هذا الحديث سألوه عن أطفال المشركين، فقال لهم: ﴿ الله أعلم بما كانوا عاملين ﴾ [٣]. فلو لم يكن المراد بالفطرة: الإسلام، لما سألوه عن ذلك. لأنه لم يكن هناك ما يغير تلك الفطرة، ما داموا من أبوين كافرين وقوله–صلى الله عليه وسلم– " فأبواه يهودانه أو ينصرانه " يبين أنهما يغيران الفطرة التي ولدوا عليها.

ثانياً: لقد شبه الرسول – صلى الله عليه وسلم – ذلك بالبهيمة التي تولد مجتمعة غير مجدوعة، لا نقص فيها، ثم يطرأ عليها النقص بعد ذلك بجدعها. فعلم من ذلك أن التغيير وارد على الفطرة السليمة.

---

(١) محمد سليمان، من مشكاة النبوة، مجلة البيان، العدد السابع عشر، ص ٢٠ بتصرف.

(٢) وهو قوله تعالى ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** ﴾ [**الروم**: ٣٠].

(٣) يقول ابن منظور في كتابه " لسان العرب " تعليقاً على هذا النص النبوي: يذهب إلى أنهم إنما يولدون على ما يصيرون إليه من إسلام أو كفر. لسان العرب، ج ٥، ص ٣٤٣٤، مادة (فطر).

ثالثاً: الحديث مطابق في الآية الكريمة: وهذه الآية وصف الله بها الدين الذي أمر نبيه بأن يقيم وجهه له في قوله: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا**﴾ ثم قال: ﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ**﴾ والإضافة هنا: للمدح والتشريف. فعلم أنها فطرة ممدوحة، لا مذمومة: ويؤيد هذا كله الروايات الأخرى التي فسرت الفطرة بأنها: الحنيفية، وبأنها هذه الملة، يعني: الإسلام.

رابعاً: ولو كانت الفطرة هنا شيئاً غير الإسلام، لكان الرسول -صلى الله عليه وسلم- قد ذكر الإسلام في جملة ما ذكر من الأديان التي تفسد الفطرة بالتحول إليها، ولقال: "فأبواه يهودانه وينصرانه أو يسلمانه" ولكنه لم يذكره، لأنه الدين الذي تتغير الفطرة بتحولها عنه وليس بتحولها إليه [1].

وإذا كانت الفطرة تقتضي الإسلام، فهذا يعني: طروء الكفر، وأنه ليس هو الأصل في النفس البشرية، وقوله تعالى: ﴿**لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**﴾ أي: لا تبديل لدين الله، وهو معنى قوله تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ**﴾ [**البقرة**: ٢١٣].

أخرج ابن كثير في تفسير هذه الآية قول قتادة " كان الناس أمة واحدة " قال: " كانوا على الهدى جميعاً ثم اختلفوا فيه "[2]

وأما ما جاء في سورة الكهف في قصة موسى - عليه السلام -

---

(١) د. محمد السيد الجليند، قضية الخير والشر في الفكر الإسلامي، ص ٢٣٤، ط: مطبعة الحلبي بالقاهرة، سنة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(٢) ابن كثير في تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٣٦٥

والرجل الصالح الذي قتل الغلام، فلا يعنى هذا: أن كفر هذا الغلام كان موجوداً حين الولادة، لذلك جاء في الحديث الصحيح: " أن الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً، ولو بلغ لأرهق أبويه طغياناً وكفراً "[١] فقوله (طبع) أي طبع في الكتاب، أي: قدر وقضى، فهو مولود على الفطرة السليمة، ولكن يتغير بعدئذ فيكفر، كما أن البهيمة التي ولدت عجماء، وقد سبق في علمه – سبحانه وتعالى – أنها تجدع، كتب أنها مجدوعة بجدع يحدث لها بعد الولادة[٢].

وقد قتل الصحابة في سرية من السرايا أولاد المشركين، فأنكر عليهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ذلك، فقالوا: أليسوا أولاد المشركين فقال: " أليس خياركم أولاد المشركين ؟[٣] ثم قام فيهم خطيباً فقال: ألا إنّ كل مولود يولد على الفطرة، حتى يعرب عنه لسانه "[٤].

فهذا يبين أن الكفر طرأ بعد ذلك[٥].

---

(١) رواه مسلم في صحيحة في موضعين، كتاب الفضائل، باب فضائل الخضر، ج ٤، ص ١٨٥٢، وكتاب القدر باب كل مولود يولد على الفطرة ج ٤، ص ٢٠٥٠، ورواه الترمذي في صحيحة، تفسير سورة الكهف، ج٤، ص ٣٧٤. وقال: حديث حسن صحيح، ورواه أحمد في مسنده، ج ٥، ص ١١٩–١٢١، ورواه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب القدر، ج٤، ص ٢٢٧.

(٢) محمد سليمان، من مشكاة النبوية، مجلة البيان، العدد ١٧، ص ٢١.

(٣) رواه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في ذراري المشركين، ج ٥، ص ٨٤، رقم الحديث: ٤٧١١، ورواه أحمد في مسنده، ج ٢، ص ٢٦٦، ٢٩٣، ٤٧١.

(٤) رواه بهذا اللفظ: أحمد في مسنده، ج ٣، ص ٣٥٣، ورواه مسلم في صحيحة، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، ج ٤، ص ٢١٤٨.

(٥) محمد سليمان، من مشكاة النبوة: مجلة البيان، العدد ١٧، ص٢٢ .

ومما ينبغي معرفته في ذلك: أن الرسول – صلى الله عليه وسلم– إذا قال: " كل مولود يولد على الفطرة " يعني: على الإسلام أو الحنيفية فليس المراد أنه خرج من بطن أمه، وهو يعلم هذا الدين ويعرفه، لأن الله يقول: ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [**النحل**: ٧٨] ولكن المراد أن فطرته موجبة ومقتضية لمعرفة كل ما هو حق، ومحبة كل خير.

ونفس الفطرة تسلتزم الإقرار بالحق، ونشدان الخير، ولهذا فقد استدل بالفطرة السليمة على معرفة الخالق – سبحانه – والإقرار بربوبيته، لأن معرفته رأس الخير كله، وموجبات الفطرة تحصل بعد ذلك شيئاً بعد شيء، بحسب درجة استعداد الطفل لتحصيل ألوان المعارف، وحرصه على ذلك، وبحسب كمال فطرته، إذا سلمت من المعارض [١]، فالفطرة الطبعية تتجلى في الطفل صريحة، دون تكلف أو تصنع [٢].

وإذا كان من البدهيات في حس كل مسلم ومسلمة: أن خالق هذه الفطرة هو منزل هذا القرآن، وهو الله – تعالى – فمن الطبيعي أن نعلم يقيناً أن هذا الدين لا بد أن يكون موافقاً للفطرة، إذ يستحيل أن يكون في دين الله أو شرعه أمر يخالف ويعارض ما فطره عليه، فالحكيم العالم بما خلق، ومن خلق، يضع الشريعة المناسبة له،

---

(١) د. محمد السيد الجليند، قضية الخير والشر، ص ٢٣٥.

(٢) د. علي عبد العظيم، إن الدين عند الله الإسلام، ص ٢٥، ط: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، القاهرة، سنة ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م.

والملائمة لخلقه، وكل أمر شرعي يخطر في بالك أنه يعارض الفطرة، يجب أن تعلم أنه لا يخلوا من احتمالين:

أولاً: إما أنه أمر شرعي، ولا يخالف الفطرة الصحيحة المستقيمة. فمخالفته للفطرة وهم.

الثاني: وإما أن يخالف الفطرة فعلاً، ولكنه لا يكون أمراً شرعياً، وإن نسبه الناس إلى الدين بغير علم ولا هدى [١].

ومن الخصائص الأساسية للعقيدة الإسلامية: أنها عقيدة الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، فعندما دعا الإسلام البشر جميعاً إلى الإيمان بالله، والعبودية له وحده، كان لهذه العقيدة صدى في أعماق فطرة الإنسان [٢].

وحينما جاء الإسلام موافقاً للفطرة الإنسانية السليمة دخل الناس في دين الله أفواجاً، لأنه تعامل مع رصيد الفطرة المكنون، وهو رصيد ضخم هائل. لا تقف أمامه أي قوة، حين يستنقذ، ويجمع، ويوجه، ويطلق في اتجاه سليم مرسوم [٣].

وحسبنا في بيان هذا أن نشير إلى: أن الإسلام في ناحية العقيدة لا يأمر إلا بعبادة إله واحد، لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك. فلم يقل بإلهين إثنين متشاكسين، كما قالت الوثنية، حين زعم دعاتها: أن الحياة صراع بين إله الخير وإله الشر، وليس فيه شيء من

(١) سلمان بن فهد العودة، نداء الفطرة لدى الرجل والمرأة، ص ٩، ط: الرياض سنة ١٤٠٩هـ -١٩٨٨م.

(٢) د. السيد رزق الطويل، العقيدة في الإسلام، ص ٨٧، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

(٣) سيد قطب، هذا الدين، ص ٥٠، ط: سنة ١٣٨٨هـ -١٩٦٨م.

الأسرار المسيحية مثل " سر التثليث " و" سر القربان " وتحوله إلى لحم المسيح ودمه، هذه الأسرار التي لا يصل أحد من رجال المسيحية أنفسهم إلى أن يدركوها إدراكاً عقلياً صحيحاً، ولهذا يطلبون من أتباعهم الإيمان بها، دون محاولة فهمها، ولكن هيهات.

وفكرة الوساطة في المسيحية بين الله وعباده فكرة لا يستسيغها العقل ولا يرى لها ضرورة، ولا يعرف لها غاية، فإنه لا معنى لتوسط رجل من رجال الدين بين الله، وبين أحد من الناس، والله العليم بكل نفس ولا حجاب بينه وبين أحد من خلقه.

ولهذا يرى الإسلام أن لكل واحد أن يتجه لله مباشرة بعقله، ويرفع إليه رجاءه بلا وسيط من رجال الدين [١].

وفي هذا جاء في القرآن الكريم: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ [**البقرة**: ١٨٦]، وكذلك فكرة إن الإنسان ولد وجاء إلى هذه الحياة مثقلاً بالخطيئة الأصلية. التي لا يستطيع منها فكاكاً، وتقول بها المسيحية، ونعرفها نحن من كتبها التي بين أيدينا، وهم يعنون بها أن الإنسان يولد وعليه وزر خطيئة آدم – عليه السلام – جده والأعلى حين خالف عن أمر ربه وأكل من الشجرة التي حرم الله قربانها، وبذلك يحملونه وزراً لم يجنه، ويجعلونه يعيش طول حياته وهو رازح تحت أثقال هذه الخطيئة المزعومة، ومن ثم يطلبون من الإنسان أن يؤمن بعقيدة الصلب

(١) كان على الدكتور / محمد يوسي موسى الذي نقلت عنه هذا النص من كتاب "الإسلام وحاجة الإنسانية إليه"، ألا يستعمل عبارة رجل الدين في الجانب الذي يخص المسلمين لأنه لا يوجد في الإسلام رجال الدين، وإنما علماء دين.

والفداء، أي: صلب المسيح الإله، تفدية للبشر مما لحقهم من هذه الخطيئة الأصلية [1].

وكيف يستطيع عقل الإنسان أن يؤمن بأن " الإله " - كما زعموا - يتمكن منه أعداؤه، فيصلبونه وهو يستغيث، ولا مغيث له، على حين يقول القرآن الكريم - كتاب الإسلام - عن آدم عليه السلام - : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [**طه** : ١٢١، ١٢٢].

كما يقرر أنه ليس للإنسان إلا ما سعى. وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى.

كما يقرر من ناحية أخرى: أن الإنسان يولد بريئاً من كل ذنب أو خطيئة، وأن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، وأن من يعمل مثقال ذرة شراً يره.

وفطرية العقيدة دليل واقعيتها ورسوخها، وتقبل الناس في يسر لها. كما أنها عنصر هام في تأثيرها في الأخلاق والسلوك.

وحوار القرآن الكريم للمشركين، وتقديم هذه التساؤلات لهم:

﴿ **أَفِي اللَّهِ شَكٌّ** ﴾ [**إبراهيم** : ١٠].

﴿ **أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ** ﴾ [**النمل** : ٦٠].

﴿ **أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ** ﴾ [**النحل** : ١٧].

﴿ **هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ** ﴾ [**لقمان** : ١١].

---

(١) د. محمد يوسف موسى، الإسلام وحاجة الإنسانية إليه، ص ٤٣.

يؤكد أن لهذه التساؤلات صدى في أعماق الناس، يدفعهم إن استقامت فطرهم إلى الجواب السديد [١].

فالإسلام دين الفطرة دون منازع، أي: أنه الدين الذي يتلاءم كل الملاءمة مع الخليقة، ومن هنا صح لنا، ولغيرنا أن نسميه دين البشرية.

وكل ما جاء به هذا الدين من دستور يقبله العقل، وهداية يستنير بها القلب، وعمق يرتكز عليه الإيمان، وتطور يصلح لكل زمان ومكان، وشريعة تنظم أحوال المجتمع، ومساواة تربط بين جميع الناس، وتأمين للنفس البشرية يجعلها تطمئن إلى حياة أخرى، تلقى النعيم بقدر ما قدمت من خير – مع فضل الله ورحمته – كل ذلك وغيره جعل الإسلام أقرب إلى طبيعة النفس البشرية ديناً ترتضيه، وسراجاً تهتدي به، وصمام أمان يرد على النفس طمأنينتها إذا هزها ريب، أو اعترتها شكوك [٢].

والحقيقة أن في فطرة الإنسان فراغاً لا يملؤه علم، ولا ثقافة، ولا فلسفة، وإنما يملؤه الإيمان بالله – جل وعلا [٣] – فاعتقاد الأفراد، والجنس الإنساني بأسره في الخالق. اعتقاد اضطراريّ، قد نشأ قبل حدوث البراهين الدالة على وجوده، ومهما صعد الإنسان بذاكرته في تاريخ طفولته، فلا يستطيع أن يحدد الساعة التي حدثت فيه عقيدته

---

(١) د. محمد يوسف موسى، الإسلام وحاجة الإنسان إليه، ص ٤٣.

(٢) د. مصطفى الشكعة، إسلام بلا مذاهب، ص ٣٩، ط: البابي الحلبي، بمصر، سنة ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م.

(٣) د. يوسف القرضاوي، الخصائص العامة في الإسلام، ص ١١، ط: مكتبة وهبة بالقاهرة، سنة ١٣٩٧–١٩٧٧م.

بالخالق، تلك العقيدة التي نشأت صامتة، وصار لها أكبر الآثار في حياته، فقد حدثت هذه العقيدة في أنفسنا، ككل المدركات الرئيسية على غير علم منا[(١)].

"فالطفل حين ولادته لا يكون لديه إدراك لهذا الأمر، ولا تعقل له، ولا إرادة، في تحصيله. لأن الله – سبحانه وتعالى – يقول: ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [**النحل**: ٧٨].

ولكنه يولد وفي فطرته قوة تحصيل النافع، وكلما ازداد الطفل علماً وإرادة حصل له معرفته بالخير، وطلب النافع، بحسب ذلك العلم والإرادة، وهذا مشاهد في حياة الأطفال، قبل بلوغ سن الإدراك والتمييز، فإنهم يحبون النافع لهم، ويهربون من الضار، بحسب كمال تمييزهم أو ضعفه، وكل ذلك يحدث فيهم على التدريج شيئاً فشيئاً، إلى أن يصل إلى الحد الذي ليس في الفطرة استعداد لقبوله، كمعرفة الغيبيات، وقضايا الألوهية، فتتوقف الفطرة عن قبول ذلك، ما لم تهتد بما جاءت به الرسل الذين بعثوا لتكميلها "[(٢)].

ولاشك أن النفوس يحصل لها من العلوم بحسب ما تكتسبه منها، وإذا لم يكن في النفوس قوة تقتضي معرفة هذه العلوم، لما استطاعت أن تعلم شيئاً منها، ولعل أكبر دليل على ذلك: أننا لو قمنا بمحاولة لتعليم الإنسان والحيوان، لما حصل للحيوان من العلوم ما

---

(١) انظر: محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، ج ١، ص ٣١٤، الطبعة الأولى بمصر. وانظر كذلك الدكتور أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص ١٦، الدار اللبنانية المصرية. مصر

(٢) د. محمد السيد الجليند، قضية الخير والشر، ص ٢٣٨–٢٣٩.

يحصل لبني آدم منها، مع أن السبب في الموضعين واحد، فالإنسان يشارك الحيوان في الإحساس، والنمو، والحركة الإرادية، ولكن الحيوان ليس بقابل لما يقبله الإنسان من المعارف، ولولا أن في الفطرة قوة تقتضي اختصاص الإنسان بذلك. لما حصل له من العلوم ما يميزه عن الحيوان [1]

ويذكر الباحثون: أنه إذا ما اشتد الجوع بالإنسان، فإنه بفطرته يبحث عن الطعام ليسد جوعه، وإذا ما برح به الظمأ فإنه بدافع من فطرته يبحث عن الماء ليروي غلته ، وإذا ما اشتد عليه البرد، فإنه بسوق من فطرته يتلمس ما يدفع به البرد عن نفسه، وأما ما يتكون في نفسه من خيالات وعواطف وأفكار، فإنه يعمل فكره باحثاً عما يعبر من خلاله عنها، من كلمات، أو إشارات بإلحاح من فطرته، وفي النفس الإنسانية مطامح روحية، وأشواق غيبية، ولابد وأن يبحث عما يشبعها ويقنعها، وذلك أمر فطري أيضاً [2] .

إن من فطرة الإنسان أن يبحث عن وجود خالق، وأن تجذبه فطرته للعبادة، وأن توقد الشوق في نفسه، وتنبه عقله للحاجة إليها، وقلما تجد أحداً لا يلقى ذلك في نفسه [3] .

فالنفوس لا يمكن أن تكون خالية عن الشعور، والإرادة، والحركة، لأن هذه المعاني من لوازم كونها نفسا، فالشعور والإرادة من

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٣٩.

(٢) د. يوسف محي الدين أبو هلالة، دعوة الفطرة، ص ٥٩، ط: دار العاصمة بالرياض سنة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

(٣) المرجع السابق،ص ٥٩ .

لوازم حقيقتها، ولا تتصور النفس إلا أن تكون شاعرة ومريدة، وما دامت هي مريدة وشاعرة، فلابد لها من مطلوب مراد. ضرورة كونها مفطورة على ذلك.

وكل مراد فإما أن يراد لنفسه أو يراد لغيره، والنفس لها مرادات كثيرة ومتنوعة، غير أنها على كثرتها، لابد أن تنتهي إلى مراد واحد، تكون إرادتها له بذاته لا لغيره، منعا للتسلسل في العلل الغائية، وذلك المراد لنفسه هو الخير والحق، الذي يتمثل في معرفة الله أولاً، باعتباره حقيقة الحقائق، وواهب كل خير، ثم معرفة النافع للنفس ثانياً. ولا تخلوا كل نفس عن هذا اللون من المعرفة،لأن ذلك من لوازم كونها نفساً، وعلى هذا الأساس المغروز في طبائع كل بني آدم، كانت مخاطبة القرآن للناس على سبيل التفكير [١].

وهنا يمتاز الإسلام بمراعاته للفطرة البشرية، وقبولها بواقعها، ومحاولة تهذيبها ورفعها، لا كَبْتَها وقمعها [٢].

لقد جاء الإسلام موافقاً لطبيعة الإنسان، مراعياً رغباته، غير متنكر لضروراته، يكرم دوافع جسده، وحاجات شهوته، لا يعاديها ولا يستقبحها ، ولايدمر نفس الإنسان، ولايحارب فطرته، باسم الروحانية، والسمو، والتطهر والملائكية، والترفع على الشهوات الهابطة.

---

(١) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، ج ١٤، ص ٩٦ تحقيق: د. محمد رشاد سالم، ط: الأولى، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، سنة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م، وابن القيم، شفاء العليل، ص ٢٨١، ط: مكتبة المعارف بمصر.

(٢) د. يوسف محي الدين أبو هلالة، دعوة الفطرة، ص ٣٦ بتصرف.

إن الإسلام جاء ليأخذ بيد هذه الدوافع ليجندها، ويوظفها في سبيل عمارة الأرض،وبقاء البشرية .

فالإسلام يعترف بإنسانية الإنسان، وبحاجاته الفطرية، ويوجهها إلى الله، ويربطها بطاعته، وهي تدرك أوطارها وتلبي آمالها، يجمع في آن واحد بين رغبات الجسد وأشواق الروح، وغايات الحياة بتناسق وتوافق بديع [1] .

ويمتاز الإسلام عن غيره من الأديان . بأن النفس متى ارتضته، وآمنت بروحه، واطمأنت إلى تعاليمه، لاتحيد عنه، أو ترتضي غيره بديلاً، ذلك لأنه أقرب إلى طبيعة النفس البشرية، ولذلك فإننا لم نجد مسلماً خرج عن إسلامه إلى غير الإسلام، إلا في حالات نادرة، لا يكاد يحسب لها حساب .

وما ذلك إلا لأنه أوفق دين للخليقة، وأنسب عقيدة للإنسان . بينما نرى كل يوم عشرات من أبناء الديانات الأخرى، إلى يومنا هذا يدخلون في الإسلام، راضين متحمسين .

ومن هنا كان فضل الإسلام على الشعوب عظيماً، لقد مدن الإسلام كثيراً من الأمم، بل ما من شعب اعتنق الإسلام إلا وسار في مدارج الحضارة .

وآية ذلك واضحة في جزيرة العرب نفسها، التي انتقلت بعد إسلام أهلها إلى أمة . تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتنشر راية العرفان والإيمان، خفاقة في جميع أنحاء المعمورة، ولم يعرف للعرب

---

(١) د. يوسف محي الدين أبو هلالة، دعوة الفطرة، ص ٣٦-٣٧ .

من الانتصارات الباهرة، والفتوحات الرائعة ما قد عرف لهم بعد إسلامهم [١].

ومن ثم فانتشار الإسلام وسيادة عقيدته، قديماً وحديثاً في أسرع وقت، وبأيسر جهد، إنما يرجع إلى واقعية هذا الدين، وبساطة عقيدته، ولم يشهد التاريخ تحولاً جماعياً لأمم وشعوب، كانت في ذروة الحضارة، كما شهد في الإسلام، إذ اعتنقته جماعات بأسرها، مرحبة بعقيدته السمحة، ومبادئة الواقعية، واجدة فيه الخلاص الأكبر من جاهلية توبق النفس، ووثنية تزهق الروح، وركام يطمس الفطرة" [٢].

إن الإسلام دين الفطرة، عقيدته تستمد ضياءها وتألقها، من وهج الفطرة التي برأها الله، طاهرة ناصعة، ولقد تعجب إذ ترى الدول الصليبية تنفق أموالاً طائلة على التبشير (التنصير) بالنصرانية، وتحويل المسلمين عن إسلامهم، تساند ذلك بالوسائل العلمية، ولكنها وبرغم الجهود المضنية لا تظفر على المدى الطويل، باجتذاب أحد إلى النصرانية، أو استهواء جماعة إلى الكفر، وأنا أقصد الذين تمكنت منهم عقيدة الفطرة.

أما الذين يعيشون في فراغ عقدي، فهم المرتع الخصب لأهداف الدول الصليبية، مما يدعو الأمة الإسلامية، بل يوجب عليها إعداد الدعاة ومواجهة التحديات ومما لا يكاد يخفى:

---

(١) د. مصطفى الشكعة. إسلام بلا مذاهب ص ٣٩، ٤٠، ط الدار المصرية اللبنانية. القاهرة.

(٢) توفيق محمد سبع، واقعية المنهج القرآني، ص ٨٢-٨٤، ط: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، سنة ١٣٩٣ - ١٩٧٣م.

" إن الفطرة في الإسلام ليست تفكيراً خالصاً، إنها مزيج من التفكير والشعور، والدين قد جاء يخاطب الفطرة كما يخاطب الفكر والشعور معاً، يخاطب العقل والقلب جميعاً.

والذين يعتمدون على سلطان العقل وحدة في الوصول إلى عقيدة راسخة، وفكرة كلية واضحة، تفسر هذا الوجود، وتحل ألغازه، قد جاوزوا بالعقل حدوده واختصاصه، وأهملوا جانباً مهماً في الفطرة الإنسانية، هو جانب الشعور والوجدان، جانب العقل، كما أغلقوا على أنفسهم باباً واسعاً،ما كان أحوجهم إليه، وما أضل سعيهم بغيره، هذا الباب هو : باب الوحي "(١).

ولابد لنا من أن نتبين الفرق بين الفطرة والتقليد، فالتقليد نوع من التبعية للآخرين.. أما الفطرة: فنور موثوق به. في داخل الإنسان، يحتوي على ضمان أحقيته في ذاته. وكل الأدلة الخارجية كونية أو عقلية، إنما هي منبهات على هذه الفطرة.

ولا يصرف الإنسان عن عقيدة الفطرة، إلا أهواء غالبة، أو نزوع إلى تقليد الأباء، والأجداد. وبهذا كانت مهمة رسل الله كافة في جميع الأعصار، هي تحويل الناس من عبادة المخلوقات إلى عبادة الخالق، وكان نداؤهم الأول إلى أقوامهم:﴿**أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾[**النحل**: ٣٦]﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ**﴾[**الأعراف**: ٥٩].

فالكون وما فيه من نظام، وأحكام، وتناسق، وإبداع. ليس هو وحدة الشاهد، وإنما هناك شاهد آخر، هو الشعور المغروس في النفس

(١) د. يوسف محي الدين أبو هلالة، دعوة الفطرة، ص ٦١-٦٢.

الإنسانية، وهو شعور فطري. فطر الله الناس عليه، وهو المعبر عنه بالغريزة الدينية.

فالعقيدة الإسلامية عقيدة الفطرة، تتناسق تعاليمها مع الفطرة السليمة البعيدة عن الأهواء، ويجد العقل المستنير في تعاليمها: الحق والخير، لأنها منزلة من عند الخالق العالم بما خلق." وعلى ذلك فالإسلام لا يعتمد في ثبات تلك العقيدة، وغرس شجرتها في القلب على مجرد التلقين، ولا يريد من الناس أن يعتنقوها عن تقليد، بل لابد من قبولها عن فهم ونظر وبحث وإدراك "[1].

وللفطرة الصحيحة معالمها الواضحة، وسماتها البارزة، وأنوارها الساطعة، والحق واحد لا يتعدد، لأنه خط مستقيم، والخط المستقيم هو: أقصر طريق بين نقطتين، ولذلك لا يكون إلا واحداً.

ولعل أول معلم في دين الفطرة هو: أن يعرف الإنسان ربه معرفة واضحة صادقة. والتوحيد الذي هو حق الله على عباده غرسه الله في طبائع الناس، يخرج به كل مولود، ولا يميل عنه إلا من حاد عن الجادة، وانصرف عن سلامة الخلقة.

لقد جاء الدين الإسلامي مقراً بالفطرة، غير متنكر لها، وجاء هذا الدين موافقاً لهذه الفطرة في عقائده وأحكامه، ولذلك سمى دين الفطرة، وجاء الدين منظماً للفطرة، ففتح أمامها الأبواب، والطرق السليمة، التي تلبي حاجتها وتشبع جوعها، لئلا تنحرف إلى

---

(١) د. مصطفى عبد الواحد، خصائص العقيدة الإسلامية، ص ١٦٦، (ندوة محاضرات العالم الإسلامي بمكة المكرمة، سنة ١٣٩٢هـ – ١٩٧٢).

غيرها. وجاء الدين – أيضاً – مزكياً للفطرة موجهاً لها نحو الأفضل والأطهر [1].

وبعد هذا البيان في كون عقيدة الإسلام هي: عقيدة الفطرة والحياة، فقد حدد الإسلام ذلك بآيتين، وأولى الآيتين: ذكرت الفطرة بحروفها، في قول الله –تبارك وتعالى:﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** ﴾ [**الروم**: ٣٠] فالآية – كما ترى – تشير إلى عقيدة الفطرة التي طبع عليها الإنسان.

وثاني الآيتين، قوله تعالى:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾ [**الأنفال**: ٢٤].

فإذا جمعنا بين آية الحياة وآية الفطرة، وعطفناهما معاً على قوله الله – سبحانه وتعالى:﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾ [**آل عمران**: ١٩].

يكون المعنى المحصل من مجموع الآيات الثلاث: أن الإسلام هو دين الفطرة والحياة، ولهذا كانت الفطرة عاملاً مهمّاً من العوامل التي فتحت الطريق أمام الإسلام، ليملأ القلوب، وجعلت الناس يقبلون على الإسلام أفراداً وجماعات.

---

(١) سلمان بن فهد العودة، نداء الفطرة لدى الرجل والمرأة، ص ٩–١٣ بتصرف واختصار.



المبحث الثاني

ضرورة الإسلام

إن الإنســان آية الله في خلقــه، طبــعــه ربه على هذا النحــو العـجيب، وفطره على هذه الصبغة الفذة مقترنة بعديد من الغرائز والميول، وحينما تشده الأولى إلى إزكاء النفس، واستواء الطفرة، وقصد السبيل، فإن الثانية تشده إلى النقيض تماماً بتمام.

وبين هذا وذلك يتطلع الإنسان ويرنو إلى ما يحفظ عليه نقاء معدنه، وصفاء جوهره، وزكاة نفسه، وطهارة قلبه، واعتدال خلقه، وقصد سلوكه، ويجعله على طول الخط سوي المنهج، قويم السبيل، زكي الباعث، نبيل المقصد، متعلقاً بمعالي الأمور، نائياً عن سفاسفها. يتطلع إلى ذلك ويهفو إليه، فلا يجده إلا في رحاب الإيمان بالله وأحضان الطاعة له، وظلال القرب منه.

والإنسان بفطرته لا يمكن أن يستقر في هذا الكون الهائل. فلابد له من رباط معين بهذا الكون، يضمن له الاستقرار فيه، ومعرفة مكانه في هذه الكون الذي يستقر فيه [1]، فلابد له إذن من عقيدة تفسر له ما حوله، وتفسر له مكانه فيما حوله، فهي ضرورة فطرية، شعورية، تقوم بالتأصيل لجوهر الفطرة، ومتابعة بعثها لضمان استمرار حركتها وعملها وانطلاقها.

ومن هنا: كانت حاجة الإنسان إلى العقيدة حاجة فطرية،

---

(١) د.أحمد السايح: "العقيدة في الإسلام" مجلة جوهر الإسلام، العدد الثاني والثالث، ص١٦ من السنة الثانية ١٣٩٦هـ، تونس.

مركوزة في فطرته، ومغروسة في شعوره، ومخلوطة بدمه وعصبه، ولكنه قد يضل عن إدراك هذه الحقيقة، فيشقى ويحار، ويفقد الاستقرار [١].

هذه الحاجة الفطرية في الإنسان إلى العقيدة، هي التي يتحقق بها إدراك الإنسان لحقيقة مقامه في هذه الحياة، ورسالته، وعمله، ودوره [٢].

وقد أودع الله – سبحانه وتعالى – في الإنسان، ما يستطيع به إدراك الحقائق الكبرى في الوجود [٣] وندبه الله – سبحانه وتعالى – للقيام بمهمة التعرف على هذه الحقائق، التي يراها الحس والعقل والوجدان، في الآفاق، وفي النفس، وفي كل شيء [٤]، ففي الأرض آيات للمؤمنين، وفي السماء مثلها وأعظم.

فالفطرة الإنسانية السليمة، هي التي تتوجه إلى الكون، بروح متفتحة تكشف ما فيه من قصد، وتصميم، وإبداع، وتنتهي إلى إدراك مكانها من هذا الوجود وتحديد كيفية سلوكها فيه، ومن خلال هذا التصور تتحدد علاقة الإنسان بربه – عز وجل – [٥].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أحمد محمد جمال الدين فطرة وميثاق، كتاب ندوة المحاضرات لموسم الحج سنة هـ ص، ط العالم الإسلامي ، بمكة المكرمة.

(٣) قال تعالى ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [**النحل** : ٧٨].

(٤) قال تعالى ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [**فصلت** : ٥٣].

(٥) د عبد الكريم عثمان معالم الثقافة الإسلامية، ص، ط الثالثة، مؤسسة دار الأنوار، بالرياض، سنة ١٣٩٤ هـ.

فالإنسان لا غنى له عن الدين، لأنه يحسه في نفسه شعوراً ووجداناً. ويشير إلى هذا الشعور مارواه أبو هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم- قال: " مامن مولود إلا يولد على الفطرة "[1].

وقوله الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

ففي هذه آية: بين الله - تعالى - أنه أخرج من صلب آدم ذريته نسلاً بعد نسل، على هيئة ذر، وذلك قبل خلقهم في الدنيا وأشهدهم على أنفسهم قائلاً لهم: ألست بربكم " فأجابوا: " بلى شهدنا " بذلك. فالله - سبحانه وتعالى - أشهدهم على ربوبيته،حتى لا يقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا التوحيد غافلين، أو غير عالمين[2].

فالإيمان بالله فطرة فطر الناس عليها، وإنما يضلون عنها بعض الوقت، أو كل الوقت. ثم يعودون إليها، ولو عند فراق الحياة، أو عند نزول الكوارث والأحداث، فقد كان فرعون يدعي الألوهية، ويقول لقومه: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤] وسامَ بني إسرائيل سوء العذاب، وكفر بموسى، وإله موسى، ولكنه عندما أدركه الغرق قال﴿آمَنتُ

---

(١) رواه البخاري في مواضع من صحيحه مع فتح الباري، ج، ص

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج، ص

أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [**يونس**: ٩٠].

والمشركون بالله، والكافرون به، في كل الأجيال، كانوا يعبدون الأصنام، ويستقسمون بالأزلام. فإذا مسهم الضر في البر، أو في البحر، لجأوا إلى الله. يدعونه ويسألونه النجاة:

﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ [**يونس**: ١٢].

ومن هذا يتبين: أنه يوجد في طبيعة تكوين الإنسان استعداد فطري لمعرفة الله وتوحيده، فالإعتراف بربوبيته متأصل في فطرة الإنسان، وموجود في أعماق روحه، فقد أنشأهم الله على الاعتراف بالربوبية له وحده. " فالاعتراف بربوبية الله وحده، فطرة في الكيان البشري، فطرة أودعها الله الخالق في هذه الكينونة، وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته، وحكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة، فالتوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر، وخالق البشر، منذ كينونتهم الأولى "(١).

والوجود كله عابد بطبيعته، منصاع لوظيفته، لا يسعه إلا أن يطيع ربه في ولاء لايشوبه استنكاف، ولا يطاوله تأب. بل إنه جميعاً من أعلاه إلى أسفله يهتف في البداية بلغة المقهور أمام عظمة القاهر، وهتاف العابد تجاه قدسية المعبود بما سجله الحق في قوله تعالى: **﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾** [**فصلت**: ١١].

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٣، ص ١٣٩١.

والإنسان وإن كان يساوق الكون في العبادة بفطرته، فإنه ينبغي عليه أن يفوقه منزلة، وأن يعلوه فيها درجات. تتناسب وتركيبه، وتكوينه المتميز بالعقل والإرادة، والاختيار، والميول، والنزعات، والرغائب.

بيد أن الإنسان من طبعه أن ينسى أحياناً، وأن يغفل، وأن يجحد أحياناً، وأن يكفر، لأن امتزاج الروح بالجسد، وانشغال الإنسان بمطالب جسده، ومطالبه المختلفة، التي تستلزمها حياته في الدنيا، وعمارة الأرض، قد جعلت من معرفة الإنسان بربوبية الله، واستعداده الفطري للتوحيد، عرضة لأن تطمره الغفلة، ويغمره النسيان، ويطويه اللاشعور في أعماقه.

ويصبح الإنسان في حاجة إلى ما يوقظ هذا الاستعداد الفطري، ويبعد عنه النسيان، ويبعثه من أعماق اللاشعور، فيظهر جلياً واضحاً في الإدراك، والشعور ويتم ذلك عن طريق تفاعل الإنسان مع الكون [1] وتلك فطرة فطر الله الناس عليها، وصبغة صبغهم بها، لا فكاك لهم منها، ولا شذوذ لهم عنها.

فعاطفة التدين، أو الاعتقاد بدين من الأديان، أمر غريزي، ويشترك فيه الناس عامة في كل عصر ومكان، فإنه لم تخل جماعة من الناس في أي زمان، من عقيدة دينية على نحو ما.

" وقد أثبت التاريخ أنه قد وجد في الماضي السحيق جماعات إنسانية من غير فلسفات وعلوم وفنون، ولكن لم توجد قط جماعة

---

(١) د محمد عثمان نجاتي القرآن وعلم النفس، ص٤٧، بتصرف يسير، ط دار الشروق بالقاهرة، سنة ١٤٠٣هـ – ١٩٨٢م.

إنسانية من غير دين [١]. إذ لابد في حياة الناس من نظم تلم شتاتها، وترسم حياتها، وتضمن لها أسباب النهوض والتقدم، ويعيش الناس في ظل هذه النظم على قواعد الحق، والعدل، في أمن وسلام.

وقد كرم الله الإنسان بالعقل. لكنه أودع فيه نفساً أمارة بالسوء، وهو يعيش في صراع بين عقله الهادي إلى الصلاح، ونفسه الأمارة بالسوء، فكان من تمام نعمته عليه، أن وضع له النظم التي توصله إلى التغلب على النفس، وسد منافذ الشيطان إليها، فحمله أمانة التكليف، وأخذ عليه العهد، بأن يعبده، ولا يشرك به شيئاً، وأمده بهداية الرسل – عليهم الصلاة والسلام [٢].

إذن لكي تتحقق الحكمة الإلهية في خلق الإنسان، ويتبين المصداق الحق لقوله تعالى إرشاداً للملأ الأعلى: ﴿**قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ [**البقرة**: ٣٠].

كان لابد لقوة الخير في الإنسان من مدد يعينها على سد منافذ الشر والطغيان" [٣].

ومن هذا يتبين: أن الدين للإنسان من الشؤون الضرورية. التي لا حياة له إلا بها [٤] والله – سبحانه وتعالى – قد خلق الناس، ولم يتركهم وشأنهم، بل اختار لهم نظماً وأحكاماً، تسعدهم في الدنيا

---

(١) د محمد يوسف موسى الإسلام والحياة، ص٧، ط: مكتب وهبة بالقاهرة سنة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١م.

(٢) د شوكت محمد عليان، الثقافة وتحديات العصر، ص١٢٦، ط: دار الرشد بالرياض، سنة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(٣) محمود شلتوت من توجيهات الإسلام، ص١٩، ط: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، سنة ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م.

(٤) المصدر السابق، ص ١٤ .

والآخرة. وذلك لأن الإنسان عاجز عن إدراك المغيبات، ويتأثر تفكيره بمؤثرات من الزمان، والمكان، والمجتمع، وهو عاجز عن حمل غيره على طاعته، لعدم قدرته على القهر الذي يحمل الناس على كامل الطاعة.

ولهذا جعل الله - سبحانه وتعالى - في كل أمة رسولاً منها، وأيده بالمعجزات، وأمده بتعاليم السماء، لينشر الخير، ويعالج الشر **﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾** [**النساء**: ١٦٥]، وقد شرع الله-تعالى-لخلقه ما يناسب حالهم، ويتلاءم مع ظروف حياتهم، وقوة إدراك عقولهم، وقوة احتمالهم [١].

وإذا كان الدين والتدين أمراً غريزيّاً، وفطريّاً في الإنسان، في كل زمان - كما عرضنا - فإن الدين الإسلامي هو: الدين الحق، الذي رضيه الله - تعالى - للناس جميعاً. والآية الكريمة التي عدت الدين عند الله الإسلام: **﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾** [**آل عمران**: ١٩] تعني: مجموعة المبادئ الإسلامية وتعاليم الإسلام.

فالإسلام مر بمراحل كثيرة عبر أنبياء الله ورسله، إلى أن انتهى إلى المرحلة المتكاملة في رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - التي جاءت إلى الإنسانية كلها - إذن - رسالة الإسلام هي الدين الشامل للإنسانية، في وحدة إيمانهم بالله.

قال تعالى: **﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾** [**المائدة**: ٣] ولهذا كان الإسلام يشتمل على إمتداد زماني في المعتقد الديني يعرض لقضية البشرية من نشأتها إلى غايتها،

(١) د شوكت عليان، الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، ١٢٧.

ويشتمل على شمول يضم الأديان كلها، ويدعوها إلى تصحيح معتقداتها "[1].

فالديانات وإن تعددت في الفروع والتكاليف والأعمال، فقد اتحدت في المصدر الذي صدرت عنه، وهو الله – تعالى – واتحدت في الأصل الذي دعت إليه، وهو التوحيد.

فالقدر المشترك بين الديانات جميعاً هو: تصحيح العقيدة أولاً، ثم معالجة الأمراض الخلقية والاجتماعية الموجودة في تلك البيئات.

قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ [**النحل**: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾ [**الأنبياء**: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾ [**الشورى**: ١٣].

ولقد جاء الإسلام في جانبه الإيماني، يؤكد هذه الأسس، التي أكدها كل نبي، ولكنه في الجانب الذي يستتبع الشريعة، جانب الالتزام والعمل، كان الإسلام الفصل الأخير في تكامل التشريعات.

وهذا الطابع الشمولي الملتقي في أسس العقيدة، والمتكامل في التشريع، هو الذي جعل من الإسلام الصيغة الوحيدة الباقية المستمرة

---

(١) د أحمد السايح، الفضيلة والفضائل في الإسلام، ص٣٠، ط: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، سنة١٤٠٤هـ–١٩٨٤م.

أبد الدهر، ولعل هذا هو السر الذي جعل من الإسلام كلمة تختص بالدين الذي جاء به رسول الإنسانية محمد صلى الله عليه وسلم [1].

وكلمة الإسلام، وفي الإطار اللفظي تعني: التسليم والخضوع، وفي مفهوم الدين يراد منها: التسليم، والخضوع لله وحده لا شريك له، وبهذا المعنى أطلقت على كل من آمن بالله من أصحاب الأديان السماوية الحقة، هم مسلمون بهذا المعنى [2].

ووحدة الإيمان حقيقة تفرضها وحدة المصدر بصورة قاطعة، لا تقبل الجدل أو التشكيك، ولا يغير من واقعها وجود فواصل البعد الزمني بين الأنبياء، الذين أرسلهم الله إلى عبادة [3].

فالإيمان بالله – سبحانه وتعالى – ليس غريزة فطرية فقط، بل هو ضرورة، فالدين عنصر ضروري، والإنسانية بحاجة إليه، للكمال النفسي، والروحي، فالإنسان جسم وروح، والجسم يتغذى بالطعام، والشراب، بينما تتغذى الروح بالإيمان والعقيدة.

وعلى ذلك فالإسلام منهج شامل لأمور الدنيا والآخرة، محقق لمصالح الفرد والجماعة، قوامه الشريعة والعقيدة والأخلاق، فليس ديناً فقط، ولكنه دين ونظام وحياة، لا تنفصل فيه العلاقة بين الله والإنسان، عن الصلة بين الإنسان والإنسان، وهو ينظمها جميعاً.

---

(١) د أحمد السايح، الفضيلة والفضائل في الإسلام، ص ٢٨-٢٩ .

(٢) المصدر السابق، ص٢٩، بتصرف .

(٣) المصدر السابق، ص٢٩ .

فالعقيدة الإسلامية ضرورة للإنسان، وذلك لرفع مستواه، والمحافظة عليه من الانحراف المادي والإلحادي.

ومن القواعد المقررة أن الإنسان مدني بطبعه، ومعنى ذلك إن الإنسان بفطرته، يميل إلى التعارف، والتعايش مع غيره، ولذلك جعل الحق – سبحانه وتعالى – التعارف بين الناس، من أهم أسباب خلقه لهم،إذ قال سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [**الحجرات**: ١٣] هذا التعارف ليس مقصوداً لذاته، وإنما جعل أولاً غذاء لطبيعة الإنسان، وثانياً: وسيلة للتعارف على كل ما فيه إسعاد البشرية، وتحقيق حياة أفضل لأفرادها في جانبها المادي والفكري.

يبين ذلك الدكتور محمد عبد الله دراز، فيقول: " إنه لا قيام للحياة في الجماعة، إلا بالتعاون بين أعضائها، وهذا التعاون إنما يتم بقانون ينظم علاقاته، ويحدد حقوقه وواجباته، وهذا القانون لا غنى له عن سلطان نازع، ووازع، يكفل مهابته في النفوس ويمنع انتهاك حرياته "(١).

وعلى ذلك نستطيع أن نقرر – دون أن نجانب الصواب – أنه ليس على وجه الأرض قوة تكافئ قوة التدين، أو تدانيها في كفالة احترام شرع الله، وضمان تماسك المجتمع، واستقرار نظامه، والتئام أسباب الراحة، والطمأنينة فيه.

---

(١) د محمد عبد الله دراز، الدين، ص ٩٨ .

والسر في ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الحيوانات الحية بأن أفعاله وأعماله الاختيارية يتولى قيادتها شيء لا يقع عليه سمعه ولا بصره، ولا يوضع في يده، ولا في عنقه، ولايجري في دمه، ولا يسري في عضلاته وأعصابه، وإنما هو معنى إنساني روحاني اسمه العقيدة.

وقد ضل قوم قبلوا هذا الوضع، وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران في الحياة المادية والاقتصادية، بل يتأثران بها "[1].

وليست قوانين الجماعات، ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة، تحترم فيها الحقوق، وتؤدى الواجبات على وجهها الكامل.

فإن الذي يؤدي واجبة رهبة من السوط، أو السجن، أو العقوبة المالية، لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون.

ومما هو معلوم لكل حضارة شطران: شطر روحي، وشطر مادي، فالشطر المادي الذي يعتمد على الحس والعقل وليس الأمر كذلك فيما يتعلق بالشطر الروحاني أو النظري.

والشطر النظري: العقيدة والأخلاق، والتشريع، ونظام المجتمع [2] ولذلك جاءت العقيدة الإسلامية كاملة هادية للعقل في الجانب النظري، فشملت التشريع والأخلاق، ونظام المجتمع.

- ومن خصائص الوحي فيما يتعلق بالتشريع: أنه هاد للعقل،

---

(١) المصدر السابق، ص ٩٨ .

(٢) د عبد الحليم محمود، الإسلام وتنظيم المجتمع، ص٥، ط: دار الكتاب العربي بمصر.

وكما أن الدين هاد للعقل، كان لابد في استخدام العلم، من رقيب أخلاقي يوجهه لخير الإنسانية، وعمارة الأرض، لا إلى نشر الشر والفساد، ذلكم الرقيب هو: العقيدة، والإيمان.

ولا يخفى على أهل العلم: أنه من الخطأ البين أن يظن بعض الناس أن في نشر العلم والثقافات وحدها ضماناً للسلام، والرخاء، وعوضاً عن التربية والتهذيب الديني والخلقي [1] ذلك أن العلم سلاح ذو حدين، يصلح للهدم والتدمير، كما يستعمل للخير، يستعمل كذلك للشر، فلابد للعلم من تربية عالية، وتوجيه سديد، وإيمان راسخ يوجه المجتمع.

وذلك أن وظيفة العلم محصورة في الجانب الحسي المحض، فهو يقف عند حدود لا يتجاوزها، بينما وظيفة الدين في الحياة ذات مجال رحب. فالإسلام بما حواه من هداية إلهية، وتشريعات سماوية، يكفل للمجتمع الإنساني، كل عوامل السعادة والأمن والاستقرار، ولا يكون ذلك عن تشريع وضعي، يضعه فرد، أو جماعة معينة. ذلك لأن الإنسان مهما سما فكره، ونضج عقله، لايمكن أن يحيط بكل ما يوفر للإنسانية أمنها واستقرارها.

لقد بين الله – سبحانه وتعالى – بالدين الإسلامي، وهو خاتم الرسالات الإلهية، ما هو حق وخير، في مجتمع شؤون الحياة. فهو لم يترك الإنسان سدى، بل بين له الرشد من الغي، ووضعه على الجادة الصحيحة، والطريق السوي، فيما يختص بالعقيدة، والسلوك الفردي

---

(١) د محمد عبد الله دراز، الدين، ص٩٩ .

والإجتماعي، والعلاقات التي تربطه بغيره من الناس جميعاً.

فالدين الإسلامي فيه صلاح الناس جميعاً، حتى الذين لم يرزقوا حظا وافراً من التفكير العقلي السليم، ولذلك كان الوحي الإلهي رحمة عامة لجميع الناس، ولهذا نرى الدين ضرورة اجتماعية كما هو فطرة إنسانية [1].

والله الذي خلق الإنسان، وركب فيه طبائعه ونوازعه، هو الخبير بكل أدوائه، والعليم بوسائل شفائه، وهو وحده الذي يقدر أن يضع للجماعات الإنسانية من الشرائع والنظم، ما يحقق لها أسباب السعادة، وجميع وسائل الأمن والاستقرار، وذلك بالدين الذي يدعوها إليه، فهو السلطان المهمين على نفوس المؤمنين به، يحملهم على الأخذ بتعاليمه، ويدفعهم إلى القيام بما سنه لهم، من تشريع وتنظيم، ويدفعهم إلى التحلي بالفضائل، ويحول بينهم وبين ارتكاب الرذائل، وليس هناك وراء الدين شيء يهيمن على النفوس، غير نظام خالق النفوس [2].

فالإسلام نظام رباني، يقوم على مبادئ سياسية، رضيها الله لعباده دستوراً يقودهم في دنياهم إلى حياة كريمة، ويعدهم في أخراهم لميراث جنة عرضها السموات والأرض.

فالإسلام هو الرابطة التي جمعت البشرية على الإيمان بالله واليوم

---

(١) د محمد يوسف موسى: " الإسلام والحياة، ص٨.

(٢) د محمد حسين الذهبي الدين والتدين، دراسة بمجلة البحوث الاسلامية، ج١، ص٥٤ الصادرة سنة١٣٩٥هـ، ط: دار الافتاء والبحوث بالرياض.

الآخر، ذلك أن القصد من الدين ليس إلا تزكية النفس، وتطهير القلب، وظهور روح الامتثال والطاعة، واستشعار عظمه الله، وإقرار الخير والصلاح في الأرض، على أساس قوي متين، من ربط العبد بخالقه (١).

فهو إذن مطلب إنساني رفيع، يغذي جانب الروح، ولاينسى حاجة العقل، وبعبارة أخرى: هو مطمح العقل، وغاية الروح، وبجانب ما للدين من وظائف نفسية، تجعل منه غذاء ضرورياً لقوى النفس، وعصارة مقومة لحيويتها، توجد له وظائف اجتماعية، لايكون موضوعها الفرد، وإنما يكون موضوعها المجتمع ككل (٢).

وهكذا يتبين للباحثين والدارسين: أن العقيدة الإسلامية تعبر عن حاجات النفس الإنسانية، في مختلف ملكاتها ومظاهرها، ومن هنا تنبع حاجة البشر إلى الدين، من طبيعة الإنسان نفسه، فقد خلقه الله – تعالى – ومنحه طبيعة الكائن المتكيف، وعلى ذلك فحاجة الإنسانية إلى التدين نبتة فطرية أصيلة ركبت فيه، وفطر عليها، ولذلك يكون الدين هو الرقيب الذاتي داخل النفس، يدفع الإنسان إلى مراقبة الله، الذي يعلم السر، وما تخفي الصدور، فيكون دافع الدين والاعتقاد شاملاً لجميع القوى المختلفة: الجسمية، والروحية، والنفسية، والخلقية، والاجتماعية.

فالدين يزكي النفس، ويطهرها، ويحول دائماً بين الإنسان،

---

(١) محمود شلتوت: "من توجيهات الإسلام"، ص١٨.

(٢) د محمد عبد الرحمن بيصار: "العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع"، ص٩٢، ط: الرابعة، الأنجلو المصرية القاهرة.

وبين نوازع السوء والضلال فيه، وذلك أنه يشعر دائماً بمراقبة الله له في كل شيء، ومن هنا تزكو نفسه بفعل الخير وعمله، والبعد عن الشر، وهذا مبلغ ما ينبغي أن تسعى الإنسانية إليه.

فالإنسانية بحاجة إلى الدين، لأنه جزء من فطرة الإنسان، وطبيعته، ولا يمكن لإنسان عاقل أن يستغني عن جزء من فطرته وكيانه، فهو الوسيلة الوحيدة التي نأمن مخاطرها، ونضمن نتائجها، لتحقيق الحياة الإنسانية.. فالدين يقيم نظاماً يدعو إلى الفضيلة واعتناقها، كما يقيم دستوراً حكيماً يحفظ للإنسان إنسانيته، كما يحفظ له نفسه وماله.

وكما أن حاجة الإنسان إلى الدين لحفظ النفس، والمال، والعرض، كذلك فإن الإنسانية في حاجة إلى الدين، لتربية الإنسان، الذي كرمه الله تعالى فقد قال:

﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾ [التين: ٤].

وقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وعلى ذلك فإن احتياج الإنسان إلى العقيدة نزعة فطرية ركبت فيه، وفطر عليها. ومن هذا المنطلق يصف القرآن الكريم الدين أنه الحياة، وبأنه النور الذي يضيء للسالك الطريق.

قال تعالى: ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فالعقيدة تقوم من المجتمع مقام الروح من الجسد، ولسعادة المجتمع لابد من العقيدة الصحيحة، التي تنير الطريق، وتحدد أسلوب معاملة الفرد للجماعة والجماعة للفرد.

لقد كان لهذه العقائد والأصول والمبادئ الإنسانية، التي قام الإسلام عليها، ولما قام عليه هذا الدين: من المساواة، والعدالة، والإحسان، كان لذلك أثر بالغ في سرعة انتشاره، وحسن تقبل الناس له في أقطار العالم المختلفة، كما كان ذلك من العوامل الحاسمة، والأسباب القوية، فيما أدركه الإسلام من عز، ومجد، وسلطان، سعد به العالم الذي عاش تحت لوائه (١).

فمن طبيعة المنهج الذي يرسمه هذا الدين، ومن حاجة البشرية لهذا المنهج، نستمد يقيننا الذي لا يتزعزع، في أن المستقبل لهذا الدين، المتعطشة إليه البشرية جمعاء (٢).

فالعقيدة هي أساس قيام المجتمع، وأساس صلاحه أو فساده، بل هي أساس بقائه واستمراره.

فهذا الدين في حقيقته النقية المصفاة، له أثره المبارك في تهذيب النفس، وإسعاد الإنسان، وتوجيه الحياة وجه الحق والخير.

إن الدين ضرورة من ضرورات الإنسانية الراشدة، لا تغني عنه فكرة عقلية، ولا تنظيم وضعي.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ

---

(١) د محمد يوسف موسى، الإسلام والحياة، ص١١٤، ط: السادسة، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، مطبعة الفيصل، سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦هـ.

(٢) محمود شلتوت، من توجيهات الإسلام، ص٢٣.

نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤، ١٧٥].

إن العقيدة الإسلامية تقوي الاتصال بالله، وتبعث في النفس اطمئناناً يقوي عزيمة المؤمن، فلا يصل إلى نفسه اليأس، ويتغلب على مصاعب الحياة بقوة الإيمان.

وإن الباحث: إذا تأمل أحوال الإنسانية في هذا العصر، فسوف يجد أنها في أمس الحاجة إلى الإسلام.

فالحضارة الغربيّة وصلت إلى أعلى مستوى من الرقي العمراني، والتقدم العلمي الهائل، ولكن قصة البشرية برغم التقدم الحضاري فيها مساوىء كثيرة، زلت فيها أقدام البشر، وضاعت عقولهم.

فقد أطلقت الحضارة الغربية حرية الإنسان، وحررت غرائزه المكبوتة وتحولت الحريات إلى انحراف في الغريزة، وإلى شذوذ في الطبيعة، وإلى عدوان على حريات الآخرين، ونتيجة لهذه الحرية لم يعد هناك ضابط.

ومن تعاسة الحضارة المادية، أنها عكست كرائم النعم، والملكات التي أنعم الله بها على الإنسان، عكساً أسقط الإنسان في وديان الهلاك والدمار، وسقطت بالإنسانية دون عالم الحيوان، فراجت خسائس العادات، وذميم الصفات من الاختلاط الفاضح، والشذوذ في السلوك، وظواهر الخنفسة والهيبز، والارتخاص، والابتذال، والخلاعة[١].

---

(١) د أحمد عبد الرحيم السايح، أضواء على الحضارة الإسلامية، ص١٩١-١٩٢، ط: مكتبة دار اللواء بالرياض، ١٤٠١-١٩٨١م.

لقد تقدمت العلوم –بلا ريب – ولكن هذه الحضارة التي علّمت الناس كيف يسبحون في الماء بالغواصات الجبارة، وكيف يطيرون في الفضاء، وفي الهواء، وفوق السحاب، عجزت حتى اليوم عن تعليم ناسها، وشعوبها كيف يسيرون على الأرض في طريق الخير بغير عوج والتواء.

إن الغرب اليوم في حيرة بالغة، وقلق واضطراب شاملين، وكل ذلك يأخذ عليهم عقولهم وقلوبهم، وأصبح الضمير هناك لا يطمئن إلى عقيدة أو مبدأ أو نظام، فلم يعد يجد اليقين الذي يفيء إلى ظله، في جو من الهدوء والراحة والاستقرار[1].

والبشرية اليوم في مفترق الطريق، فهناك اضطراب في الأفكار وحيرة في الاتجاهات، وزعزعة في النظم، وخواء في العقيدة، أصبح يجرفها دولة بعد دولة، وشعباً بعد شعب، إلى هاوية المادية.

وعلى كل فقد وقع المحذور، وانصرف اتجاه الغرب إلى المادية بكل معانيها وبكل ما تتضمنه هذه الكلمات من عقيدة، ووجهة نظر: نفسية، وعقلية، وأخلاق، واجتماع، وعلم، وأدب وسياسة، وحكم، وكان ذلك تدريجيّاً، وكان أولاً ببطء، وعلى مهل، ولكن بقوة وعزيمة، فقام علماء الفلسفة والعلوم الطبيعية ينظرون في الكون، نظراً مؤسساً على أنه لا خالق ولا مدبر، ولا آخرة، وليس هناك قوة وراء الطبيعة.

والمادة تتصرف في هذا العالم، وتحكم عليه، وتدبر شؤونه،

(١) د محمد يوسف موسى، الإسلام والحياة، ص٢٦ .

وصاروا يفسرون هذا العالم الطبيعي، ويعللون ظواهره وآثاره بطريق ميكانيكي بحت، وسموا هذا نظرا عملياً مجرداً [١].

وليس الحال في الشرق والبلاد العربية، بأحسن من الغرب، فقد انحرف الكثير عن الدين في غير قليل من شؤون الحياة [٢].

لقد تأثرت بعض المجتمعات بالغزو الحضاري الغربي، وليس ذلك التأثير في الجانب العلمي، والصناعي، والعمراني، ولكن - للأسف - في أسوأ المساوئ وأصبح البعض يقلد الغرب في كل ما هب ودب، وما من ظاهرة من الظواهر العفنة، ولا موضة من موضات العصر، إلا ولها في بعض المجتمعات صدى واهتمام.

لقد أفلست الحضارة الغربية، برغم التقدم العلمي الهائل لذي وصلت إليه، وبدأ الإنسان الأوربي يهرب من حضارته، لأنه لم يحس في ظلها بالسعادة، ولم يحس في مجتمعه بالأمن والاطمئنان.

فقد انتشرت عصابات القتل والخطف، والتخريب، والإرهاب، وتفاقم خطر الجريمة، وازداد عدد المجرمين، وامتلأت البلاد بجماعات العربدة والفجور، وأقيمت نواد العراة، وأبيح في غير استحياء الشذوذ الجنسي. إلى غير ذلك.

وأخيراً: لهذا وغير هذا: لجأ الغربيون إلى الهروب من معتقداتهم الدينية، ومذاهبهم الاقتصادية، بل من كل حضارتهم التي افتتنت

---

(١) أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٧٨، ط: دار الكتاب العربي، بيروت، سنة١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

(٢) د محمد يوسف موسى، الإسلام والحياة، ص ٢٧ .

بالعلم والعقل، فأصبحت شقية عمياء لا تبصر، طارت بحضارتها إلى الفضاء، وانحدرت بالشباب الغربي إلى مدارك السفالة والانحطاط، ليعشوا في حياة الجنس والخمر، ونوادي العراة.

والشيوعية في الشرق وفي الغرب، قد أعلنت فشلها، وبات الناس في جحيمها يئنون جوعاً، ويبكون توجعا، ويتألمون من شدة الكبت، وفقدوا كل كرامة وكل شيء.

وهكذا يهرب الأوربيون من نظمهم الوضعية، ويهرب الشيوعيون من جحيم الاشتراكية.

وهكذا تعجز النظم البشرية، والقوانين الوضعية، عن تقديم أي عون للإنسان، أو الأخذ به إلى الطريق السليم، مما يؤكد ضرورة الإسلام للمجتمعات الإنسانية،لأن الإسلام قد انطوى على طاقة روحية جعلت منه – عند التطبيق – قوة فاعلة ومؤثرة، بل إن فاعلية الإسلام شملت حياة الأفراد، وحياة الجماعات من جميع الجوانب.

المبحث الثالث

عالمية الإسلام

العقيدة بالدين حاجة روحية، ضرورية. لصلاح البشر فلا يختص بها فريق من الناس، دون باقي البشر.

لذلك كانت الحاجة ماسة إلى دين عالمي، يكون دعوة إلى جميع شعوب الأرض قاطبة، أبيضها وأسودها، وأحمرها .عربيها وعجميها.

هكذا لابد أن يكون الدين العالمي عقيدة تصلح للبشر، العامة منهم والخاصة يشعر كلّ منهم أن له عقيدة يطمئن إليها، وأن هذه العقيدة رباطه بالدنيا والآخرة، بالله وبالإنسان. فالناس أمة واحدة في الدين الجديد، هذا الدين هو دين البشر [١].

والدين العالمي يكون عالميّاً: بعدم اختصاصه بجنس من الأجناس البشرية، وبعدم انحصار تطبيقه في إقليم خاص، أو بيئة معينة.

ويكون الدين عالميّاً بامتداد هدايته أزماناً طويلة. تتجاوز العصر الذي بدأت فيه بمعنى أن يكون الدين صالحاً لكل جنس، وكل جيل وكل زمان ومكان.

وبمعنى آخر: يكون الدين عالميّاً: إذا كان شريعة الإنسان من حيث هو إنسان .بقطع النظر عن العوامل والفوارق العارضة، التي لا

---

(١) محمد عزت الطهطاوي، النصرانية والإسلام ن ص٣٠٨، ط: كتبة النور، بالقاهرة، سنة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

تدخل في ماهية الإنسان كإنسان. وبدون ذلك لا يتحقق معنى العالمية في أي دين [1].

ونود أن نتعرف على الخصائص التي يجب أن يشتمل عليها الدين. لكي يكون عالميّاً، وصالحاً لكل زمان ومكان، ونجمل هذه الخصائص في ثلاث:

أولاً: وفاء هذا الدين بحاجة الإنسانية جميعاً، فيما يصون وحدتها، ويرعى إنسانيتها، ويحمي أفرادها في العاجل والآجل.

ثانياً: تشريعاته التي تضمن قيام الإنسانية كلها في محيط واحد، لا تنزع معه إلى عصيبة دم، أو اختلاف لون، أو فرقة جنس.

ثالثاً: اتساقه مع حقائق الكون، وخصائص الوجود، بحيث لا يتعارض مع ما يثبت من حقائق العلم، أو يختلف مع منطق الفكر [2].

وكذلك لا يكون عالميّاً إلا إذا صحب الإنسان في جميع أزمانه المتطورة، وعصوره المتلاحقة، أي: يكون خالداً، لا يعتريه نسخ. أو زوال، ولا عقم ولا جمود، موفياً بجميع مطالب الإنسان المتنوعة المتجددة في كل الميادين التي يزاول فيها الإنسان بعقله الواسع نشاطه الكامل. ولا يوجد دين فيه هذه المواصفات التي تجعله عالميّاً، إلا دين الإسلام [3].

والعالمية من القيم التي تنبثق من عقيدة الإسلام لأن مجتمع

---

(١) عطية صقر عطوة، الدين العالمي، ومنهج الدعوة إليه، ص١٠ .

(٢) محمد الراوي، الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، ص٤٦، ط: دار العربية بيروت.

(٣) عطية صقر، الدين العالمي ومنهج الدعوة إليه، ص١١ .

الإسلام هو مجتمع الإنسانية كلها، مجتمع ليس لجغرافيته حدود، وليس للعنصرية فيه وجود[1].

فالرسالة الإسلامية قد توجهت للناس كافة، من جميع الأجناس والألوان، وفي كل العصور.. وبالعالمية التي اتصف بها الإسلام، يتميز عما سبقه من رسالات سماوية كانت تتوجه إلى أقوام بينهم، في عصر معين.[2]

ولذلك نرى القرآن الكريم يتحدث عن أقوام بلغتهم رسالات سماوية، وينسبهم القرآن إلى أنبيائهم، كما في الحديث عن قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى، وغيرهم من الأنبياء والرسل.

قال تعالى﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ** ﴾ [**الأعراف**: ٥٩].

﴿ **وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾ [**الأعراف**: ٦٥].

﴿ **وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا** ﴾ [**الأعراف**: ٧٣].

﴿ **وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ** ﴾ [**الأعراف**: ٨٠].

﴿ **وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا** ﴾ [**الأعراف**: ٨٥].

وقال تعالى في شأن عيسى – عليه السلام–﴿ **وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي**

---

(١) د إبراهيم عوضين، الإسلام والإنسان، ص٢٨١، ط: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، سنة ١٣٨٥هـ–١٩٦٤م.

(٢) جمال الدين محمود، أصول المجتمع الإسلامي، ص١٠، ط: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، سنة ١٤٠٤هـ–١٩٨٤م.

إسْرَائِيلَ﴾ [**آل عمران**: ٤٩].

فهذه النسبة هي التي تبين وتوضح أن الرسالة مخصوصة بهؤلاء القوم، فقد أرسل الأنبياء لإصلاح أقوامهم، أو مجتمعات بعينها، وحققت هذه الرسالات أهدافها، بتصحيح أصل العقيدة، ومنهاج الحياة، فيما يحتاج إلى إصلاح [١].

وترى في آيات القرآن الكريم أمثلة كثيرة للإصلاح في العقيدة حينما يتوجه الأنبياء إلى من أرسلوا إليهم بالبعد عن الشرك، وبعبادة الله وحده.

قال تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾** [**الأنبياء**: ٢٥].

كما نرى أن بعض الأنبياء توجه بجانب الدعوة إلى عبادة الله وحده بتوجيهات تتعلق بالسلوك أو المعاملات بين الناس، مثل عدم ارتكاب الفاحشة: **﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾** [**الأعراف**: ٨٠].

أما الإسلام: فهو يهدف إلى رسم إطار المنهاج الإلهي لحياة البشر، في كل زمان ومكان، ولذلك غطى منهجه العقيدة، والأخلاق، والتشريع، بطريقة تجعله لا يقف أمام الاختلافات العارضة المؤقتة بين بني الإنسان، والتي لا صله لها بفطرة الإنسان، كما خلقه الله جسداً وروحاً، وباستعداده الفطري للاتجاه إلى الملأ الأعلى.

---

(١) جمال الدين محمود، أصول المجتمع الإسلامي ص ١٠.

وقد لا يخفى أن الإنسان بحسب فطرته ينزع إلى البحث فيما وراء ذاته، أو الموجودات التي تدركها حواسه، وهي فطرة الإنسان التي يتساوى فيها الإنسان العالم في المدينة، مع الإنسان البدائي في قلب الغابة.

واستجابة لهذا النزوع الذي لا يختص به إنسان دون آخر، ولا جنس دون غيره. فإن الإسلام يقدم له العقيدة التي تستجيب لكافة تطلعاته، حين يرتقي الإنسان ويستشرف آفاقاً عالية في علاقاته مع غيره [1].

وإن الإنسان وهو يتابع عالمية الإسلام يلحظ بوضوح: أن العالمية في الإسلام، قد قامت على عناصر متكاملة.

أولاً: وحدانية الإله، وإنكار تعدد الآلهة. ومن هنا كان أساس الإيمان في شريعة محمد –صلى الله عليه وسلم– أن يكون بالله وحده لا شريك له.

١– وحدانية الربوبية. فلا خالق، ولا مدبر، ولا متصرف سواه.

٢– ووحدانية الألوهية. فلا معبود، ولا مسؤول، ولا مستعان سواه.

وبالوحدانية بشقيها دعا الإسلام.

فالإيمان بالله معناه: إفراده. سبحانه وتعالى – بالألوهية، والربوبية، فلا شريك له في الخلق، ولا شريك له في تصريف الأمور، ولا يتدخل في تصريفه للكون والحياة أحد غيره، ولا يرزق الناس معه

---

(١) جمال الدين محمود، أصول المجتمع الإسلامي، ص١١.

أحد، ولا ينفع أو يضر غيره أحد، ولا يتم شيء في هذا الوجود صغيراً أو كبيراً إلا بإذنه [1].

إذن هذا الإيمان الذي جاء به الإسلام: هو الإيمان الشامل الذي يليق بهذه الأمة الوارثة لدين الله، القائمة على دعوته في الأرض إلى يوم القيامة الضاربة الجذور في أعماق الزمان، السائرة في موكب الدعوة، وموكب الرسول – صلى الله عليه وسلم – وموكب الإيمان الممتد في شعاب التاريخ البشري، الإيمان الذي يتمثل البشرية كلها منذ نشأتها إلى نهايتها [2].

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [**البقرة**: ٢١، ٢٢].

ثانياً: الإيمان بكتب الله المنزلة على الأنبياء، سواء منها ما أنزل على محمد –صلى الله عليه وسلم– وما أنزل على إخوانه الأنبياء السابقين، لأن هذا الإيمان عنصر من عناصر الإسلام، لا يتحقق إلا به [3].

قال تعالى: ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ**

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن ج١، ص٣٤٠، ٣٤١، بتصرف.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن ج١، ص٣٤٠، ٣٤١، بتصرف.

(٣) محمد الطهطاوي، النصرانية والإسلام ص٣١٨ .

رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فالإيمان بالله يقتضي الاعتقاد بصحة كل ما جاء من عند الله – عز وجل [1].

ثالثاً: الإيمان بجميع الرسل الذين أرسلهم الله إلى عباده، من لدن آدم – عليه السلام – إلى محمد –صلى الله عليه وسلم– لأن الله اصطفاهم من عباده وحمّلهم رسالته عن طريق ملائكته.

قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [**النحل**: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾ [**الشورى**: ١٣].

فالإيمان بالله – سبحانه وتعالى – يقتضي صدق كل الرسل الذين يبعثهم الله، ويقتضي الإيمان بوحدة الأصل، الذي تقوم عليه رسالتهم وتتضمنه الكتب التي نزلت عليهم.

ومن ثم لا تقوم التفرقة بين الرسل في ضمير المسلم، فكلهم جاء من عند الله بالإسلام في صورة من صورة المناسبة لحال القوم الذين أرسل إليهم حتى انتهى الأمر إلى خاتم النبيين محمد – صلى الله عليه وسلم – فجاء بالصورة الأخيرة للدين الواحد، لدعوة البشرية كلها إلى يوم القيامة [2].

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج١، ص٣٤٢ .

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج١، ص٣٤٢ بتصرف.

فالإيمان بوحدانية الله، والإيمان بكتبه، ورسله، عناصر رئيسه في العالمية التي جاء بها الإسلام.. ولكن ألا ترى معي: أن عالمية الإسلام قضية لابد لها من أدلة تدعمها، وشواهد تثبتها، ولهذا سأحاول أن أعرض هذه الأدلة لتكون علائم الكمال، ومعالم الطريق في عالمية الدين الإسلامي.

المجموعة الأولى: أدلة تعتمد على ما ورد في كتاب الله، وسنة نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم – من قوله وفعله. إذن هذه الأدلة تقوم على الكتاب والسنة. وأدلة الكتاب: جاءت منها آيات مكية، تدل على أن وصف العالمية لازم الدعوة الإسلامية من أيامها الأولى، ومنذ أشرقت على الناس، كما جاءت منها آيات مدنية تنبيء عن العالمية واستمرارتها.

ومن الآيات المكية قوله تعالى: ﴿**وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ**﴾[**القلم**: ٥٢].

وقوله تعالى ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [**التكوير**: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ [**الأعراف**: ١٥٨].

وقوله تعالى: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ [**يس**: ٦٩، ٧٠].

ومعنى من كان حياً: كل من ثبتت له الحياة[1]. وهذه آية تبين

(١) عطية صقر، الدين العالمي، ومنهج الدعوة إليه، ص ١٨.

وظيفة القرآن : بأنه نزل على الرسول – صلى الله عليه وسلم – لينذر به من به حياة .[1]

وقوله تعالى :﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً** ﴾ [**الفرقان** : ١] .

وقوله تعالى :﴿ **وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ** ﴾ [**الأنعام** : ١٩] .

وقوله :﴿ **وَمَن بَلَغَ** ﴾ : عطف على المخاطبين من أهل مكة، أي : لأنذركم به، وأنذر كل من بلغه القرآن من العرب والعجم، وقيل : من الثقلين، وقيل : من بلغه القرآن إلى يوم القيامة [2] .

وفي تفسير قوله تعالى :﴿ **وَمَن بَلَغَ** ﴾ : قول آخر، وهو أن يكون بمعنى :

احتلم وبلغ حد التكليف [3] .

وقوله تعالى :﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ [**سبأ** : ٢٨] .

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٥ ، ص ٢٩٧٥ .

(٢) الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج٦، ص١٨٨ .

(٣) المصدر السابق ، ويقول سليمان بن عمر الشهير بالجمل في تفسيره في (ومن بلغ) ثلاثة أقوال : أحدها أنه محل نصب عطفاً على المنصوب في لأنذركم و تكون من موصولة ، والعائد عليها من صلتها محذوف ، أي ولأنذر الذي بلغه القرآن .
والثاني أن في (بلغ) ضميراً مرفوعاً يعود على من ويكون المفعول هو منصوب المحل أيضاً نسقاً على مفعول لأنذركم والتقدير ولأنذر الذي بلغ الحلم ، فالعائد هنا مستقر في الفعل.
الثالث أن من مرفوعة المحل، نسقاً على الضمير المرفوع في لأنذركم وجاز ذلك لأن الفصل بالمفعول والجار والمجرور أغنى عن تأكيده والتقدير لأنذركم به، ولينذركم الذي بلغه، الجمل، الفتوحات الإلهية ج١، ص ١٤ .

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

وأم القرى: هي مكة. وهي قلب الأرض، بمنزلة الرأس من الجسد لسائر الدنيا (١). ومن حولها: أهل البدو والحضر (٢). ويشمل كل الناس غير المقيمين فيها فكل حي على وجه الأرض مقيم حول مكة، فهي مركز الدائرة، وقطرها ممتد بين كل نقطتين على المحيط العالمي (٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

هذه معظم الآيات المكية التي جاء فيها التأكيد الواضح لعالمية الإسلام.

أما الآيات المدنية:

فقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ٦٤].

---

(١) عبد القادر أحمد عطا، لماذا بعث الرسول في مكة؟ ص ١٣.

(٢) الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج١٤، ص١٤٨.

(٣) عطية صقر، الدين العالمي، ومنهج الدعوة إليه، ص ١٩.

وقوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ [**التوبة**: ٣٣].

وإذا انتقلنا بعدما ذكرنا من آيات القرآن الكريم، إلى السنة النبوية وجدناها الصدى المتجاوب مع آيات الله.

يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: " كان كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود "[(١)].

يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة "[(٢)].

وفي كتاب النبي – صلى الله عليه وسلم– إلى جيفر وعياذ ابني الجلندي ملكي عمان، قوله: " فإني رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيّاً ويحق القول على الكافرين "[(٣)].

وفي حديث البراء بن عازب – عند حفر الخندق – في غزوة الأحزاب، وقد اعترضت المسلمين صخرة، وهم يحفرون، جاء قولهم: فاشتكينا ذلك للنبي – صلى الله عليه وسلم – فجاء وأخذ المعول فقال: " بسم الله، ثم ضربه فنشر ثلثها ".

وفي رواية: فخرج نور أضاء ما بين لابتي المدينة، وقال: " الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأرى قصورها الحمر الساعة من مكاني هذا "

---

(١) رواه مسلم في صحيحة بشرح النووي، كتاب الساجد، ج٥، ص ٣.

(٢) رواه البخاري في صحيحة في فتح الباري، كتاب الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، ج١، ص٥٣٣.

(٣) القسطلاني، المواهب اللدنية، ج١، ص٢٢٥، ط: البابي الحلبي بمصر.

قال: ثم ضرب الثانية، فقال: " باسم الله " فقطع ثلثاً آخر، فقال " الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض " .ثم ضرب ثالثه، وقال: " باسم الله " فقطع الحجر. وقال: الله أكبر " أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر باب صنعاء "[1]..

وعن عدي – رض الله عنه– أن النبي – صلى الله عليه وسلم– قال له: ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى. قال: كنوز كسرى بن هرمز ؟ قال: الله كنوز كسرى بن هرمز " وكنت فيمن أفتتح كنوز كسرى بن هرمز "[2].

وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– " أنكم ستفتحون مصر وهي: أرض فيها القيراط، فإذا فتحتموها، فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحماً.. أو قال ذمة وصهراً "[3].

وعن جابر – رضى الله عنه– قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–:

" أعطيت خمساً، لم يعطهن أحد من الأنبياء من قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد

---

(١) رواه أحمد في مسنده، ج٤، ص٣٠٣، بنفس اللفظ، ورواه النسائي في سننه، كتاب الجهاد، غزوة الترك والحبشة، ج٦، ص٤٣، مع اختلاف في الألفاظ.

(٢) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة، ج٦، ص٦١ .

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب وصية النبي صلى الله عليه وسلم–ج٤، ص١٩٧٠، رقم الحديث٢٢٧، ورواه أحمد في مسنده، ج٥، ص١٧٤، ج٥، ص٣٧٨ .

قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة "[1].

هذه الأحاديث وغيرها – مما جرى مجراها في التبشير بالفتح، ونشر دين الله، تدل دلالة أكيدة، لا لبس فيها ولا غموض، على عالمية الدين الإسلامي، وأنه سينتشر في هذه الأصقاع والأمصار، التي أشارت إليها الأحاديث وغيرها.

المجموعة الثانية: تقوم أدلتها على العوامل الأساسية: إذن أن المقومات الأساسية الخالدة للإسلام: أنه قائم على العقل والبرهان، وأن هناك أصولاً أولية يتألف منها دستور علمي، يوجه إلى ينابيع الحكمة.

وهي تنحصر في هذه الكليات التي تفيد: دوام النظر، والتفكير في الوجود إجمالاً، وفي الكائنات التي فيه تفصيلاً، ودرس أحوال الأمم، والاعتبار بها وتنور نواميس الاجتماع من خلالها، والاستهداء بالأعلام المنصوبة في الوجود لهداية السالكين إلى الحقائق الخالصة من الشوائب، والتجرد من جميع الصيغ الوضعية ومن الهوى في الحكم على الأشياء، والاجتهاد في تحصيل العلم حيث كان.

واعتبار الفضائل وسائل لبلوغ الكمال. الذي قدره الخالق للإنسان في هذا العالم، واعتبار وحدة الإنسانية، وأن الناس ما قسموا إلى أمم وشعوب وقبائل ليتخالفوا ويتناكروا، وإنما ليتعارفوا ويتحابوا.

ويضاف إلى ما سبق من عوامل أساسية كدليل على عالمية

---

(١) رواه البخاري كتاب بدء الوحي، باب قول النبي "جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً" ج١ ص١٦٨ رقم٤٢٧، رواه مسلم في صحيحة، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ج١، ص٣٧١ .

الإسلام: أن كلمة " الإسلام " لا تدل على اسم شخص بعينه، أو أمة بعينها، وإنما تدل على صفة مخصوصة يضمها معنى الإسلام.

ويظهر من هذا الاسم: أنه ما عنى بإيجاد هذا الدين وتأسيسه رجل من الرجال، وليس خاصة بأمة معينة، دون سائر الأمم، وإنما جاء الإسلام ليتصف الناس جميعاً بصفة الإسلام، فكل من اتصف بهذه الصفة من غابر الناس وحاضرهم هو مسلم، ويكون مسلماً كل من سيتحلى بها في المستقبل [1].

فالكلمة إذن بمدلولها وغايتها عامة شاملة، تتسع لماضي الناس وحاضرهم ومستقبلهم، كما اتسعت لنبوات الأنبياء جميعاً، ولم تتخذ صفة الانتساب لأحدهم دون الأخر.

والإسلام بلغة القرآن: ليس اسماً لدين خاص، وإنما هو اسم للدين المشترك الذي هتف به كل الإنبياء، وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء [2].

المجموعة الثالثة: أدلة واقعية، وهي كثيرة، وكلها تشهد لعالمية الإسلام، وأنه دين الإنسانية كلها وسنحاول أن نشير إلى الحقائق الواقعية التالية:

أولاً: كان من السابقين إلى الإسلام أبو بكر العربي، وبلال الحبشي، وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي.

---

(١) أبو الأعلى المودودي، مبادئ الإسلام، ص٣-٤، ط: المكتب الإسلامي ببيروت، محمد الراوي الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، ص٧٥ .

(٢) محمد الراوي، الدعوة الإسلامية، ص٧٥ .

وأبو بكر – رضى الله عنه – كان من رؤساء قريش في الجاهلية محبباً فيهم، مُألَفاً لهم، وكان إليه الأشناق [١] في الجاهلية، كان إذا حمل شيئاً صدقته قريش وأمضوا حمالته، وحمالة من قام معه، وإن احتملها غيره خذلوه ولم يصدقوه.

فلما جاء الإسلام سبق إليه، وأسلم على يده جماعة لمحبتهم له، وميلهم إليه [٢].

وأما بلال بن رباح: فقد اشتراه أبو بكر – رضى الله عنه – وأعتقه لله – عز وجل – وكان عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – يقول: أبو بكر سيدنا، واعتق سيدنا، يعني بلالاً.

وقال مجاهد: أول من أظهر الإسلام بمكة سبعة: رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وأبو بكر، وخباب، وعمار، وبلال، وسمية أم عمار [٣].

وأما سلمان الفارسي: فأصله من فارس، وكان ببلاد فارس مجوسياً، سادن النار [٤]. فجاء إلى العرب في قصة طويلة وأسلم.

وأما صهيب الرومي: فكان أبوه وعمه عاملين لكسرى على الأبلة [٥] وكانت منازلهم على دجلة عند الموصل.

---

(١) الأشناق: هي الديات، ابن الأثير، أسد الغابة، ج٣، ص٢١٠ .

(٢) ابن الأثير، أسد الغابة، ج ٣، ص٣١٠ .

(٣) المصدر السابق، ج٥، ص٤٨١ .

(٤) المصدر السابق، ج٢، ص٤١٧ .

(٥) هي: بلدة على شاطئ دجلة، على بعد أربعة فراسخ من البصرة في زاوية الخليج، الذي يدخل إلى مدينة البصرة وهي أقدم من البصرة، حمد بن عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار، ص٨–٩ .

ويقال: أن صهيباً لما كبر وعقل هرب وقدم مكة، فحالف ابن جدعان وأقام معه، ولما بعث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أسلم، وكان من السابقين إلى الإسلام.

وقال الواقدي: أسلم صهيب وعمار في يوم واحد، وكان إسلامهما بعد بضعة وثلاثين رجلاً[1].

فماذا يعني دخول الرومي، والإفريقي، والفارسي، والعربي في الإسلام؟ يعني وبكل تأكيد: أن الإسلام جاء للإنسانية كلها.

ثانياً: ومن الحقائق الواقعية في التعامل الإسلامي الدال على عالمية الإسلام، أنه نادى كل الناس فكانت العقيدة المذهبية التي وضعها للإسلام، والمبدأ العام الذي يجب أن تسير عليه البشرية في تطورها، لتصل إلى غايته. هو المعبر عنه في قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [**الحجرات**: ١٣][2].

والآية الكريمة – كما نرى: خاطبت الناس **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾** أي: البشر جميعاً وتكرر استعمال هذه الكلمة الدالة على الجنس البشري، نحواً من أربعين ومائة مرة، كثير منها ورد خطاباً عموماً كهذه آية السابقة، وكقوله تعالى **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾** [**البقرة**: ٢١].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [**البقرة**: ١٦٨].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾ [**يونس**: ٢٣].

---

(١) ابن الأثير: أسد الغابة، ج٣، ص٣٦-٣٩.

(٢) انظر محمد المبارك، الحج والتوعية الإسلامية، ص٩٦، ضمن كتاب (استراتيجية العالم الإسلامي).

وجاءت كلمة الناس في معرض الحض على تقديم الخير للناس في كثير من الآيات:

قال تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣].

﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

﴿ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ [الشعراء: ١٨٣].

﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [النساء: ١١٤].

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨].

﴿ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وكلمة الناس استعملت في القرآن الكريم، بمعنى: الجنس البشري عموماً، لا بمعنى المسلمين العرب، أو العرب، بدليل قوله تعالى في الآيات الآتية مما لا يمكن حملة إلا على الناس عموماً.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٨٩].

﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

إن استعمال هذه الألفاظ (الناس) و(الإنسان) يرسخ بمعنى الإنسانية العام، ووحدة الجنس البشري. ذلك أن القرآن الكريم، لا

يخاطب قومية معينة، ولا شعباً معيناً، بل يخاطب الإنسان بوجه عام [1].

فالإسلام – كما يفهم من النصوص القرآنية، جاء ليقيم رابطة الإنسانية القائمة على ارتباط البشر جميعاً بالله الخالق، فهم جميعاً عباد الله لا ليجعل شعباً معيناً شعبه المختار.

والرسول الذي أمر بتبليغ الإسلام .خوطب في القرآن الكريم على هذا الأساس ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**﴾ [**الأعراف**: ١٥٨] ولم يرسل ليكون هادياً إلى قومه وحدهم، كما أرسل موسى هدى لبني إسرائيل، وكما أرسل عيسى – عليه السلام – إلى خراف بني إسرائيل الضالة [2]. إنما أرسل ليكون للناس أجمعين.

ثالثاً: ومن الحقائق الدالة على عالمية الإسلام: الكتب والرسل التي بعث بها النبي – صلى الله عليه وسلم– إلى ملوك الأمم، يدعوهم فيها إلى الإسلام.

يقول ابن هشام: بعث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – رسلاً من أصحابه كتب معهم كتباً إلى الملوك، يدعوهم فيها إلى الإسلام.

– فبعث دحية بن خليفة الكلبي، إلى قصير الروم.

– وبعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك الفرس.

– وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة.

---

(١) محمد المبارك، الحجّ والتوعية الإسلامية، ص٩٧، ضمن كتاب (استراتيجية العالم الإسلامي).

(٢) المصدر السابق، ص٩٩ .

- وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك الإسكندرية.

وأشار ابن هشام، في سيرة النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى كتبه ورسائل أخرى إلى ملوك عمان، واليمامة، والبحرين، وتخوم الشام [(١)].

ومن أمثلة هذه الكتب: ما أرسله النبي- صلى الله عليه وسلم- إلى النجاشي، إذ قال له: "بسم الله الرحمن الرحيم-من محمد- رسول الله-إلى النجاشي ملك الحبشة.. أسلم تسلم، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس، السلام المؤمن، المهمين.

وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، خلقه الله من روحه، كما خلق آدم بيده. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله - عز وجل - فقد بلغت ونصحت، فاقبلوا والسلام على من اتبع الهدى "[(٢)].

ففي هذه الرسالة دعوة ملك الحبشة إلى الإيمان بالإسلام، والدخول فيه، وكذلك الرسائل الأخرى، توجهت بالدعوة إلى دين الإسلام، ففي رسالة هرقل - عظيم الروم - قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - فإني أدعوك بدعوة الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤، ص٢١٧، باختصار شديد.

(٢) على الأحمدي، مكاتيب الرسول، ص١٢١، الزيلعي، نصب الراية لأحاديث الهداية، ج ٤، ص٤٢١ .

أجرك مرتين [١].

وفي الرسالة المبعوثة إلى كسرى – ملك الفرس – أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس "[٢].

وكذلك تضمنت الرسالة المرسلة إلى المقوقس عظيم مصر: فإني أدعوك للإسلام، فاسلم تسلم، وإن تسلم يؤتك الله أجرك مرتين "[٣].

فكتب الرسول – صلى الله عليه وسلم – تؤكد الدعوة الإسلامية التي جاءت للناس أجمعين.

والباحث في عالمية الدين الإسلامي: يجد أن هذه العالمية نطقت بها آيات القرآن الكريم، وجاءت بها السنة النبوية، وأكدها واقع الدعوة الإسلامية من سرايا، وغزوات وفتوح، واستقبال للوفود، وكتب للملوك في العالم.

والأدلة على عالمية الإسلام أكثر من أن تذكر وهي تتجلى في الإسلام وأحكامه وتشريعة، وأخلاقه، وفضائله، وكل ومضة من ومضاته، وإشراقة من إشراقاته.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، ص٣٢، وفي كتاب الجهاد، ج٦، ص١٠٩ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب الجهاد، باب دعوة اليهود والنصارى، وعلى ما يقاتلون عليه وماكتب– صلى الله عليه وسلم– إلى كسرى وقيصر، والدعوة قبل القتال، ج٦، ص١٠٨ .

(٣) رواه الزيلعي، في نصب الرياة ج٤، ص٤٢١ .

المبحث الرابع

استمرارية الإسلام

من السمات البارزة للدين الإسلامي: أنه جاء لكل الناس، وقد أكد ذلك الواقع الذي عاشته الدعوة الإسلامية في بدايتها ومسيرتها في الحياة، فأثبتت الدعوة إلى الإسلام: أن الإسلام للناس أجمعين، ومن ثم كانت العالمية مصدراً من مصادر القوة في الأمة الإسلامية.

ولا يخفى أن بيان عالمية الإسلام يقتضي: أن نتعرف على الاستمرارية، لأنها مصدر من مصادر القوة التي دفعت الناس إلى التعرف على هذا الدين، والدخول فيه.

والاستمرارية تفيد خلود الإسلام، واستمرار بقائه، وامتداد رسالته، ما دامت البشرية تواصل حياتها على هذا الكوكب، وقد شاء الله – سبحانه وتعالى – أن يكون هذا الدين الذي يلازم البشرية في مسيرتها، ويستوعب مظاهر التجدد والنمو في حياتها هو دين الإسلام، لأنه الدين المؤهل لإنارة الطريق أمام الإنسان وقيادته نحو الخير والصلاح.

والآية الكريمة التي عدت الدين عند الله الإسلام: قال تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾ [**آل عمران**: ١٩]. تعني مجموعة المبادئ الإسلامية وتعاليم الإسلام.

فالإسلام مر بمراحل كبيرة، عبر أنبياء الله ورسله، إلى أن انتهى إلى المرحلة التكاملية في رسالة محمد – صلى الله عليه وسلم – التي

جاءت إلى الإنسانية كلها [1].

فالإسلام يشتمل على امتداد زماني في المعتقد الديني، يعرض لقضية البشرية من نشأتها إلى غايتها.

ويشتمل على شمول موضوعي يغطي مجالات الحياة جميعاً، ويشتمل – أيضاً – عل شمول يضم الأديان كلها، ويدعوها إلى تصحيح معتقداتها والانخراط في سلك الذين أسلموا لله.

وهذا الطابع الشمولي هو الذي جعل من الإسلام الصيغة الوحيدة الباقية المستمرة أبد الدهر [2].

ولقد كان الإسلام في صورته التي بلغها محمد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هو الدين الذي ارتضاه الله – سبحانه وتعالى – ديناً أبدياً، وكما أن كل شيء مرده في النهاية إلى إرادة الله – سبحانه وتعالى – فيجب أن نعلم أن اختيار الله لهذا الدين واصطفاءه لرسوله قد كان بالحق.

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف: ٩].

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٨].

يظهر ذلك في طابع هذه الرسالة وخصائصها، التي تنطق في جملتها وتفصيلها بأنها خاتمة الرسالات وأنها لذلك أبدية، لا

---

(١) د. احمد السايح، أضواء على الحضارة الإسلامية،ص ١٤٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٤، ر١٤٦

تنسخها شريعة أخرى إلى قيام الساعة [١].

ولذلك كانت تعاليم رسالة الإسلام، لا تغيب عن الناس، ولن تغيب وسوف تبقى ثابتة، وكل الشواهد تدل على ذلك:

فهي أولاً: مجموعة من الحقائق في العقيدة، والشريعة، والأخلاق، لا تتغير مهما تغير المكان، أو تغير الزمان. وما هو ثابت في نفسه، يستوي في ضرورة العلم به أن يكون عند بدء الخلق وعند قيام الساعة.

وهي ثانياً: مسجلة في القرآن الكريم، الذي نقله جبريل – عليه السلام – عن الله بأمانة تامة، ونقله كذلك محمد – صلى الله عليه وسلم – عن جبريل ونقله الصحابة – رضوان الله عليهم – من رسوله، ثم تتابعت الجماهير الغفيرة تنقله عبر القرون، حتى بلغت به إلينا، مثلما نزل قبل أربعة عشر قرناً وسنورثه نحن – بإذن الله تعالى – غيرنا، وهكذا إلى يوم القيامة.

وهي ثالثاً: واقعية، بمعنى أنها تعايش الإنسان، وتقدم له الحلول العلمية والعملية لمعاشه وسعادته، وتحيط به في النواحي التي يتجه إليها، وبذلك تحقق لدى الناس تذكراً دائماً [٢].

واستمرارية الإسلام تشهد لها آيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – ومن ذلك:

وقوله تعالى﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ**

(١) د. عبد الفتاح بركه، الرسول الكريم خاتم النبيين، ص ٤٣، ط مجمع البحوث الإسلامية. الأزهر.

(٢) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص ٢٠٨.

وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [الأحزاب : ٤٠].

يقول ابن كثير: " فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده، فلا رسول بطريق الأولى والأحرى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة. فإن كل رسول نبي ولا ينعكس "(١).

ثم أنه – سبحانه وتعالى، أكد ذلك بقوله: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ أي: هو آخر نبي بعثناه في العالم، ولن يأتي بعده نبي فضلاً عن أن يأتي رسول(٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وعن أبي هريرة – رضى الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم –قال: " إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بنياناً، فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة فأنا هذه اللبنة، وأنا خاتم النبيين "(٣).

وعن أبي هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: " فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون "(٤).

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٦، ص ٤٢٣.

(٢) أبو الأعلى المودودي، خاتم النبوة في ضوء القرآن والسنة، ص ٦، ترجمة: خليل أحمد الحامد، طبع ونشر مكتبة الرشد، بالرياض، سنة ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

(٣) رواه مسلم في صحيحة، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه – صلى الله عليه وسلم – خاتم النبيين، ج ٤، ص ١٧٩١.

(٤) رواه مسلم في صحيحة، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ج ١، ص ٣٧١.

وعن أنس بن مالك – رضى الله عنهما – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي، ولا نبي، قال: فشق ذلك على الناس. قال. قال: ولكن المبشرات.

قالوا يارسول الله: وما المبشرات ؟ قال: رؤيا الرجل المسلم، وهي جزء من أجزءا النبوة "(١).

والإمام ابن كثير – عندما أورد كثيراً من الأحاديث النبوية التي جاءت في ختم النبوة – يقول: " والأحاديث في هذا كثيرة، فمن رحمة الله بالعباد: إرسال محمد صلوات الله وسلامه عليه – إليهم، ثم من تشريفه له، ختم الأنبياء والمرسلين به وإكمال الدين الحنيف له، وقد أخبر – تعالى – في كتابه، ورسوله في السنة المتواترة عنه: أنه لا نبي بعده "(٢).

ولقد نجد معنا هذا الختم يتغلغل في كل نواحي الرسالة الإسلامية، حتى أنه لا يستقيم فهمها إلا في ضوء هذا المعنى. وآيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – كثرة كاثرة، من التصريحات، والتنبيهات، والإشارات تؤكد أن محمداً رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خاتم الأنبياء والمرسلين(٣).

ومن هنا كانت تعاليم الإسلام لن تقصر عن حماية البشر، مهما

---

(١) رواه أحمد في مسنده، ج٣، ص ٢٦٧، ورواه الترمذي في سننه باب ذهبت النبوة، وبقيت المبشرات، ج ٩، ص ١٢٦.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٦، ص ٤٢٥.

(٣) د. عبد الفتاح بركة، الرسول الكريم، ص ٦–٧ بتصرف.

وصل مستواه، لأن تعاليم الإسلام اتجهت لسائر الدعوات السابقة وصدقتها، وكملت بما يناسب الرقي الإنساني.

فقد راعت تعاليم الإسلام في هيمنتها: الارتقاء العقلي للإنسانية، فدعت إلى وحدانية مطلقة لله في الذات والصفات والأفعال، واجتثت الوثنية بأشكالها وألفاظها، وتأثيراتها السيئة على الأفراد وعلى الجماعات، بحيث لايخضع الإنسان إلا لخالقه، ولا يعبد إلا الله – سبحانه وتعالى.

وأيقظت هذه التعاليم العقل من نومه، فعابت على المقلدين، والأتباع الذين كان شعارهم﴿ **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ** ﴾ [**الزخرف**: ٢٣].

وأمرت بالنظر والتدبر، ووجهت الإنسان إلى الآيات والبراهين ﴿ **لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ [**البقرة**: ١٦٤]. (١) ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [**الحشر**: ٢١] (٢).

وأتى الإسلام في كل مجال بتوجيه رائع، وإصلاح سليم، ولم يترك مشكلة إلا أزالها ولا عقدة إلا حلها، ولا خطأ إلا أصلحه (٣).

يقول محمد عبده: " لم يدع الإسلام أصلاً من أصول الفضائل إلا أتى به، ولا أما من أمهات الصالحات إلا أحياها، ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها، فاستجمع للإنسان عند بلوغ رشده حرية

---

(١) ومادة(عقل) تكررت في القرآن الكريم في أكثر من أربعين موضعاً. محمد فؤاد. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٤٦٨.

(٢) ومادة(فكر) تكررت في القرآن الكريم في أكثر من ثمان عشرة مرة، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

(٣) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص ٢٠٩، بتصرف.

الفكر، واستقلال العقل، وما به صلاح السجايا، واستقامة الطبع، وما فيه إنهاض العزائم إلى العمل، وسوقها في سبل السعي.

ومن يتل القرآن حق تلاوته، يجد فيه من ذلك كنزاً لا ينفد، وذخيرة لا تفنى هل بعد الرشد وصاية ؟ وبعد اكتمال العقل ولاية؟ كلا: قد تبين الرشد من الغي، ولم يبق إلا اتباع الهدى، والانتفاع بما ساقته أيدي الرحمة، بلوغ الغاية من السعادتين، لهذا اختتمت النبوات بنبوة محمد–صلى الله عليه وسلم–وانتهت الرسالات برسالته"[1].

وهناك أحاديث جاءت عن النبي – صلى الله عليه وسلم – تعرض لاستمرارية الإسلام، حتى تقوم الساعة.. روى المغيرة عن شعبة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: " لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون"[2].

وروى معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنهما – وهو يخطب، قال: سمعت النبي – صلى الله عليه وسلم – يقول: " من يرد الله به خيراً يفقه في الدين، وإنما أنا قاسم، والله – عز وجل – يعطي، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً، حتى تقوم الساعة، أو حتى يأتي أمر الله "[3].

---

(١) محمد عبدة، رسالة التوحيد، ص ٢٣٧–٢٣٨.

(٢) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب الصيام، باب لا تزال طائفة من امتي ظاهرين على الحق، ج ١٣، ص ٢٩٣، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب – قوله – صلى الله عليه وسلم – لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لايضرهم من خذلهم.

(٣) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق وهم أهل العلم، ج ١٣، ص ٢٩٣، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، ج ١٠، ص ٢٤٣.

وروى مسلم مثل ذلك عن جابر بن سمرة، وعن جابر بن عبد الله، كما روى عن عقبة بن عامر، قوله: وأما أنا: فسمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: " لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك "[1] .

وروى أبو أمامة الباهلي من خطبة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تحذيره من الدجال أنه قال: " وأنا آخر الأنبياء، وأنتم أخر الأمم "[2] .

فهذه الأحاديث النبوية: تعرب في وضوح عن استمرارية الإسلام وصلاحيته إلى أن تقوم الساعة، وما دامت أمته – صلى الله عليه وسلم – آخر الأمم فإنه لا يوجد بعده نبي آخر، حتى لا تكون أمة بعد أمته.

وقد سبق لنا، ونحن نعرض (عالمية الإسلام): أن عرفنا أن من أقرب الدلائل على عالمية الإسلام، نداء القرآن الكريم الإنسان: بـ(يا أيها الناس) في كثير من الآيات. وهذه الدلائل تفيد في الوقت نفسه: استمرارية الإسلام الذي جاء لإصلاح حال الإنسان في الأرض.

كما أن من الأدلة الضرورية على استمرارية الإسلام: أن ختم النبوة يقتضي بقاء الشريعة، وعلى ذلك فالشريعة الإسلامية باقيه بقاء

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله – صلى الله عليه وسلم – " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم، ج ٣، ص ١٥٢٥ .

(٢) رواه ابن ماجة في سننه، أبواب الفتن، ج ٢، ٣٩٩، رقم الحديث: ٤١٢٨ .

الإنسان، لأنه لا ينتظر نبي آخر، يمكن معه انتظار شريعة أخرى.

فلم يكن بد ما دامت النبوة قد ختمت. أن تكون شريعتها الخاتمة، هي: المنهاج الذي يصلح لكل زمان ومكان، وألا يحتمل النسخ والتبديل، ومهما تتجدد الحوادث، وتظهر المسائل والمشاكل. فلا بد أن يجد الناس في هذه الشريعة هدايتهم.

فالله – سبحانه وتعالى – جعل الشريعة الإسلامية خاتمة الشرائع وجعلها في متناول الجميع إلى يوم القيامة، وجعلها هداية كاملة متكاملة لا تقبل تغييراً ولا تبديلاً، لافي مجموعها، ولا في باب من أبوابها.

المبحث الخامس

شمولية الإسلام

لقد اتسم الإسلام باعتباره دين الحياة، وشريعته شريعة الزمان كله، والأجيال كلها، اتسم بالإحاطة، والاستيعاب، والشمول. لم تند عنه من حياة الناس أو مشكلاتهم أو أقضيتهم، شاردة أو واردة. صغيرة أو كبيرة. سواء في ذلك بداوتهم أو حضارتهم، وتقدمهم مع يسر الحياة أو تعقدها.

إذ احتوت نصوصه من صور المرونة والحيوية، ما أتاح للناس بها حرية الحركة، وبسرعة التكيف، ويسر الأداء، ومنحهم من أجل ذلك القرآن والسنة، منها ينطلقون، وفي ظلالها يسيرون، وفي نورها يهتدون ويستنيرون.

ومن هنا كان الشمول من الخصائص التي تميز بها الإسلام، عن كل ما عرفه الناس من الأديان، والفلسفات، والمذاهب بكل ما تتضمنه كلمة الشمول من معان وأبعاد[1].

فالإسلام نظام شامل لكافة شؤون الحياة، وسلوك الإنسان، وهذا الوصف للإسلام وصف حقيقي ثابت للإسلام، لا يجوز تجريده منه، إلا بالافتراء عليه حقداً، وكراهية، أو بسبب الجهل به، وشمول الإسلام هذا لشؤون الحياة، وسلوك الإنسان. لا يقبل الاستثناء، ولا التخصيص[2].

---

(١) د. يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، ص ٩٩.

(٢) د. عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة، ص ٤٩/ص: دار عمر بن الخطاب بالإسكندرية سنة ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

فالتصور الإسلامي لتكوين الإنسان تصور واقعي، يتطابق مع طبيعة هذا المخلوق، لأن مصدر هذا التصور هو الخالق الذي خلق، ويعلم من خلق.

وإذا قيل: إن الإنسان يتكون في إجمال من البدن الذي يمثل الجانب المادي، والقلب الذي يمثل الجانب الروحي، والعقل الذي يمثل الجانب الفكري، فإن التصور الإسلامي لهذا التكوين يتميز عن غيره من المذاهب الفاسدة، والديانات المنحرفة في جانبين:

الجانب الأول: عطاء الإسلام لهذه العناصر في نموها وإشباعها.

الجانب الثاني: تحقيق التوازن في نمو هذه العناصر نمواً منتظماً متكاملاً، لا يطغى فيه جانب على الآخر.[١].

فالنظرة العامة للتصور الإسلامي تحقق هذا التوازن، الذي يصلح لعامة الناس ولخواصهم فيجمعون بين القلوب التقية، والأبدان القوية، والعقول الذكية[٢].

ولكي نقيم الحجة على شمول الإسلام، فيما تناوله من شؤون الحياة، وشموله في عطائه للإنسان، نتناول مظاهر الشمول فيما يلي:

أولاً: شمول العقيدة الإسلامية:

- وذلك أن العقيدة الإسلامية، عقيدة شاملة، من أي جانب ينظر الإنسان إليها، لقد جاء الإسلام من جوف الصحراء العربية،

---

(١) د. محمد رأفت سعيد: التوازن في التصور الإسلامي، ص ٨-٩ بتصرف وإختصار، ط: دار الهداية بالمنصورة سنة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

(٢) المصدر السابق.

بأسمى عقيدة في الإله الواحد الأحد، صححت فكرة الفلسفة النظرية، كما صححت فكرة العقائد الدينية، فكان تصحيحه لكل من هاتين الفكرتين – في جانب النقص منها – أعظم المعجزات التي أثبتت في حكم العقل المنصف، والبديهة الصادقة: أنه وحي من عند الله [1].

– ومن ثم – كما يقول العقاد: كانت هذه العقيدة الإلهية في الإسلام مصححة لكل عقيدة سبقتها في مذاهب الديانات، أو مذاهب الفلسفة، ومباحث الربوبية.

– فهي عقيدة كاملة، صححت المعتقدات في (الكارما والنرفانا) باعتبار أنها عقيدة في خواء، أو فناء مسلوب الذات، لا تجاوب بينه وبين أبناء الحياة.

– وهي عقيدة كاملة، صححت عقيدة المعلم الأول بين فلاسفة الغرب الأقدمين لأنه كان على خطأ في فهم التجريد والتنزيه، ساقه هذا الخطأ إلى القول بكمال مطلق، كالعدم المطلق في التجرد من العمل، والتجرد من الإرادة، والتجرد من الروح.

– ودين يصحح العقائد الإلهية فيما سبقه من ديانات الأمم وحضاراتها ومذاهب فلاسفتها [2].

– وما كان الشمول في العقيدة الإسلامية ليذهب فيها مذهباً أبعد وأوسع من خطاب الإنسان روحاً، وجسداً، وعقلاً، وضميراً،

---

(١) العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومة ج ٥، ص ٤٠، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد.

(٢) المصدر السابق، ج ٥،ص ٦٠–٦١ .

بغير بخس ولا إفراط في ملكة من هذه الملكات[1].

– والعقيدة الإسلامية توصف بالشمول، لأنها تفسر كل القضايا الكبرى في هذا الوجود. القضايا التي شغلت الفكر الإنساني، ولا تزال تشغله وتلح عليه بالسؤال وتتطلب الجواب الحاسم، الذي يخرج الإنسان من الضياع والشك والحيرة، وينتشله من متاهات النحل المتضاربة، قديماً وحديثاً.

– فإذا كانت بعض العقائد تعنى بقضية الإنسان دون قضية الألوهية والتوحيد، أو بقضية الألوهية دون قضية النبوة والرسالة، أو بقضية النبوة دون قضية الجزاء الأخروي. فإن عقيدة الإسلام قد عنيت بهذه القضايا كلها، وقالت كلمتها فيها، بشمول أوضح ووضوح شامل[2].

– ولهذا جاءت تشريعات الإسلام لجميع الناس، ولكافة مراحل تطور الإنسان من الميلاد إلى الوفاة، وبذلك تشمل كيان الفرد كله، والمجتمع بأسره.

– والناظر في تشريعات الدعوة الإسلامية، يرى: أنها كانت مع الإنسان، جنيناً في بطن أمه، وبعد مولده، وفي شبابه، ورجولته، وتسايره هكذا في أطواره المختلفة، حتى يأتيه أجله[3].

– وتتمثل خاصة الشمول التي يتسم بها الإسلام في رد هذا

---

(١) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٢.

(٢) د. يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، ص ١٠٦.

(٣) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص ٢٠٠.

الوجود كله بنشأته ابتداء وحركته بعد نشأته، وكل انبثاقة فيه، وكل تحور، وكل تغير، وكل تطور. والهيمنة عليه وتدبيره وتصريفه. إلى إرادة الذات الإلهية السرمدية، الأزلية الأبدية المطلقة(1).

– وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول، لأنها عقيدة لا تقبل التجزئة، ولا بد أن تؤخذ كلها بكل محتوياتها دون إنكار(2).

– وشمول العقيدة الإسلامية، هو الذي حقق للإسلام ما لم يتحقق لعقيدة أخرى، من تحويل الأمم العريقة التي تدين بالكتب المقدسة إلى الإيمان به عن طواعية واختيار. كما آمنت به الأمم المسيحية، والمجوسية، والبرهمية في مصر، وسوريا، وفارس، والهند، والصين.

إن شمول العقيدة الإسلامية، هو العامل القوي الذي يجمع إليها النفوس، ويحفظ لها قوة الإيمان(3).

ثانيا: شمول العبادة في الإسلام:

وتتمثل ظاهرة الشمول الإسلامي في عباداته كما تمثلت في عقيدته، فالعبادة في الإسلام تستوعب الكيان البشري كله، فالمسلم لا يعبد الله بلسانه فحسب، أو ببدنه فقط، أو بقلبه لا غير، أو بعقله مجرداً، أو بحواسه وحدها. بل يعبد الله بهذه كلها، بلسانه ذاكراً، داعياً، تالياً، وببدنه مصلياً صائماً مجاهداً، وبقلبه خائفاً، راجياً،

---

(1) سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، ص ٩٢، ط: دار الشروق، سنة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

(2) د. يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، ص ١٠٨.

(3) العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص ٢٦.

محباً، متوكلاً، وبعقله متفكراً، متأملاً، وبحواسه كلها مستعملاً لها في طاعته – سبحانه وتعالى[1].

قال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ** ﴾ [**الذاريات**: ٥٦، ٥٧].

وأن هذا النص القرآن الكريم – كما يقول سيد قطب: ليحتوي حقيقة ضخمة هائلة، ومن جوانب هذه الحقيقة: أن مدلول العبادة لا بد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر.

ونحن نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان، نعرفها من القرآن الكريم، من قول الله – سبحانه تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ [**البقرة**: ٣٠] فالخلافة في الأرض عمل هذا الكائن الإنساني، وهي تقتضي ألواناً من النشاط الحيوي، من أجل عمارة الأرض، والتعرف على قواها، وطاقاتها، وذخائرها، ومكنوناتها، وتحقيق الإرادة الإلهية في استخدامها وتنميتها، وترقية الحياة فيها.

كما تقتضي الخلافة: القيام على شريعة الله في الأرض، لتحقيق المنهج الإلهي الذي يتناسق مع السنن الكونية.

ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني، أو التي هي وظيفة الإنسان الأول أوسع وأشمل من مجرد الشعائر، وأن وظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعاً[2].

---

(١) د. يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، ص ١٠٨-١٠٩.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٣٨٦- ٣٣٨٧ بتصرف واختصار.

وإذا كانت العبادة غاية الوجود الإنساني. كما هي: غاية كل وجود، فإن مفهومها لا يقتصر على المعنى الخاص الذي يرد إلى الذهن، والذي يضيق نطاقها حتى يجعلها محصورة بأنواع الشعائر الخاصة، التي يؤديها المؤمن.

والعبادة بمعناها العام: تعني السير في الحياة. ابتغاء رضوان الله – سبحانه وتعالى – وفق شريعته الغراء[(١)].

والعبودية – كما بينها شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – تشمل كل ما يحب الله ويرضى من الأقوال والأفعال[(٢)].

ولقب العبادة: يطلق على كل عمل تتحقق فيه الشروط التالية:

١– أن يكون العمل نافعاً ومفيداً، وصالحاً في الحياة.

٢– أن يراد بهذا العمل وجه الله–سبحانه وتعالى–لارتباط الأعمال بالنيات " إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امريء ما نوى "[(٣)].

٣– أن يؤدي العمل بلا مخالفات شرعية لله. فكل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد[(٤)].

فإذا تحققت هذه الشروط في أي عمل، نستطيع وبكل اطمئنان: نقول: إنه مما يحب الله ويرضى، وأنه في سبيل الله[(٥)].

---

(١) د. عبد الكريم عثمان، معالم الثقافة الإسلامية، ص ١٤٨.

(٢) ابن تيمية، رسالة العبودية، ص ٤، ابن تيمية، الفتاوي، ج ١٠، ص ١٤٩.

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب الوحي، باب كيف كان الوحي إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ج ١، ص ٩.

(٤) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب البيوع باب النجش.

(٥) د. محمد رأفت سعيد، التوازن في التصور الإسلامي، ص ٢٧–٢٨.

والغرض من العبادات – كما يذكر العقاد –: تنبيه المتدين إلى حقيقتين، لا ينساهما الإنسان في حياته العامة أو الخاصة.

الحقيقة الأولى: التي يراد من العبادة المثلى أن تنبه إليها ضمير الإنسان على الدوام هي: الوجود الروحي، الذي ينبغي أن تشغله على الدوام بمطالب غير مطالبه الجسدية، وغير شهواته الحيوانية.

الحقيقة الثانية: التي يراد من العبادة المثلى أن تنبه إليها ضميره هي: الوجود الخالد الباقي، إلى جانب وجوده الزائل المحدود في حياته الفردية.

وعبادة المسلم في جميع فرائضها تتكفل له بالتنبيه الدائم إلى هاتين الحقيقتين[(١)].

لقد عد الإسلام قضية التوحيد قضيته الأولى، وقضيته الكبرى. توحيد الألوهية، وإفرادها بخصائصها، والاعتراف بها لله وحده، وشمول العبودية لكل شيء، ولكلّ حي، وتجريدها من خصائص الألوهية جميعاً[(٢)].

قال كعب بن عجرة – رضى الله عنه – مر على النبي –صلى الله عليه وسلم– رجل ذكر أصحابه من جلده ونشاطه ما أعجبهم فقالوا: يارسول الله: لو كان هذا في سبيل الله ؟ فقال: إن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين، فهو في سبيل الله، وإن كان خرج

---

(١) العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص ١١١–١١٢ باختصار.

(٢) سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي، ص ١١٦، ط: دار الشروق.

يسعى رياء ومفاخرة، فهو في سبيل الشيطان "[١].

وعن أبي ذر – رضى الله عنه – أن أناساً، قالوا: يارسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضل أمولهم قال: أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به، إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهلية صدقة، قالوا: يارسول الله: أيأتي أحدنا شهوته، ويكون فيها أجر ؟ قال: " أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه وز؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر "[٢]

ثالثاً: شمول التشريع الإسلامي:

والتشريع الإسلامي تشريع كامل بكل معاني الكلمة، فما من حدث ولا عمل يصدر عن الإنسان، ولا علاقة تقوم بينه وبين غيره إلا وللشريعة حكم فيها[٣].

إن الإسلام لا يشرع للفرد دون الأسرة، ولا للأسرة دون المجتمع، ولا للمجتمع منعزلاً عن غيره من المجتمعات. إن تشريع الإسلام يشمل التشريع للفرد في تعبده وصلته بربه، وهذا ما يفصله قسم العبادات في الفقه الإسلامي.

ويشمل التشريع للفرد في سلوكه الخاص والعام، وهذا يشمل ما

---

(١) أورده المنذري في الترغيب والترهيب، ج ٢، ص ٥٢٤، بهذا اللفظ عن طريق كعب بن عجرة ورواه البيهقي في السنن الكبرى ج ٧، ص ٤٧٩.

(٢) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، ج ٢، ص ٣٥٢

(٣) د. عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، ص ٥١ .

يسمى الحلال والحرام، أو الحظر والإباحة[١].

وارتبط التشريع الإسلامي بالإيمان بالله، والاعتقاد بوحدانيته، ومنهجه الذي ينظم شؤون الحياة في جميع جوانبها السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، إذ أن رسالة الإسلام عامة شاملة، تنظم العلاقة بين الخالق والمخلوق، كما تنظم حياة الإنسان في الدنيا يربطها بالعقيدة، ويخضعها لأحكام التشريع الإسلامي[٢].

والإسلام حين يبني تشريعه ومنهجه للحياة على هذا الأساس، إنما يهدف إلى غاية يعمل على تحقيقها في كل جوانب الحياة، هذه الغاية هي: صلاح المجتمع الإسلامي، وتحقيق الخير والفلاح له في كل شؤون الحياة، ودفع الضرر والفساد الذي يصيب الفرد أو المجتمع إذا أعرض عن هدى الله وخالف أمره[٣].

كما أن الشريعة الإسلامية لم تأت لوقت دون وقت، أو لعصر دون عصر، أو لزمن دون زمن، وإنما هي شريعة لكل وقت، وكل عصر، وكل زمن، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن يراجع أحكام الشريعة، يجد أنها كاملة لا نقص فيها، ولا قصور، شاملة لأمور الأفراد والجماعات والدول، فقد صيغت نصوص الشريعة، بحيث لا يؤثر على نصوصها مرور الزمن، ولا يبلى جدتها،

---

(١) د. يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، ص ١١٤- ١١٥.

(٢) د. عبد العظيم فودة، الحكم بما أنزل الله، ص ٢١، ط: دار الصحوة بالقاهرة، سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

(٣) المصدر السابق، ص ٢١.

ولا يقتضي تغيير قواعدها العامة ونظرياتها الأساسية[١].

ولهذا وجدنا التشريع الإسلامي يشمل التشريع للمجتمع في علاقاته المدنية والتجارية وما يتصل بتبادل الأموال والمنافع، بعوض أو بغير عوض من البيوع، والإجارات، والقروض، والمداينات، والرهن، والحوالة، والكفالة، والضمان، وغيرها[٢].

والباحث في التشريع الإسلامي وما جاء به. يكتشف في وضوح: أن التشريع الإسلامي شامل لجميع شعب الحياة من أعمال الأفراد، وعباداتهم، وسيرهم، وأخلاقهم، وعاداتهم، وآدابهم في الأكل، والشرب، والجلوس، والقيام، واللباس، والكلام، والشؤون الأسرية، والصلات الجماعية، والقضايا المالية، والاقتصادية، والإدارية، وحقوق الوطن، وواجباته، والعدالة، ومرافق الحكومة، وحالات السلم، والحرب، والعلاقات بالأمم الأجنبية، وما إليها[٣].

مما عنيت به كتب السير، أو الجهاد في الفقه الإسلامي.. ومن هنا لا توجد ناحية من نواحي الحياة، إلا دخل فيها التشريع الإسلامي آمراً، أو ناهياً، أو مخبراً[٤].

وحسب الباحث والدارس: أن أطول آية نزلت في كتاب –الله تعالى– نزلت في تنظيم شأن من الشؤون المدنية، وهو المداينة، وكتابة الدين.

---

(١) محمد صالح عثمان، وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية، ص ١٦٨، ط: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، سنة ١٤٠١هـ.

(٢) د. يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، ص ١١٥.

(٣) محمد صالح عثمان، وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية، ص ١٦٩.

(٤) د. يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، ص ١١٥.

قـال تعـالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

والآية تتضمن: إرشاد الله لعباده المؤمنين، إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها، ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها، وأضبط للشاهد فيها[١]..

والآية تتضمن كثيراً من الأحكام الدالة على شمول التشريع الإسلامي، فما هناك شعبة من شعب الحياة، ولا أمر من أمورها، إلا وقد تناولتها الشريعة الإسلامية، وأوضحت لنا فيها الخير من الشر، والطيّب من الخبيث، والصحيح من الفاسد.

وهي بذلك تعطينا صورة كاملة، ومبدأ راسخاً لنظام الحياة، وتوضح لنا بذلك تفصيل ما هي الحسنات، التي يجب أن نقيمها،

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٤٩٥.

ونرقيها، وننميها ونأخذ بها، وما هي السيئات التي يجب أن نعمل على محوها، واستئصال شأفتها، والبعد عنها، وما هي الحدود التي يجب ألا تتجاوزها حريتنا [١].

ويمكن للباحث أن يتعرف على أمثلة كثيرة للشمول في التشريع الإسلامي كثيرة، مثل:

– أحكام الأسرة من نكاح وطلاق، وإرث ونفقة، وتسمى في الاصطلاح: بأحكام الأسرة أو الأحوال الشخصية.

– أحكام تتعلق بعلاقات الأفراد، ومعاملاتهم، كالبيع، والإجارة، والرهن، والكفالة.

– أحكام تتعلق بالقضاء والدعوى، وأصول الحكم، والشهادة، واليمين، والبينات.

– أحكام تتعلق بمعاملات الأجانب غير المسلمين عند دخولهم إلى أقليم الدولة الإسلامية، والحقوق التي يتمتعون بها، والتكاليف التي يلتزمون بها.

– أحكام تتعلق بتنظيم علاقات الدولة الإسلامية بالدول الأخرى في السلم والحرب.

– أحكام تتعلق بنظام الحكم وقواعده، وشكل الحكومة، وعلاقات الأفراد بها، وحقوقهم إزاءها.

– أحكام تتعلق بموارد الدولة الإسلامية، ومصارفها، وتنظيم

---

(١) محمد صالح عثمان، وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية، ص ١٦٩.

العلاقات المالية بين الأفراد والدولة، وبين الأغنياء والفقراء.

– أحكام تتعلق بتحديد علاقات الفرد بالدولة، من جهة الأفعال المنهي عنها، والجرائم وإنزال العقوبات بالمجرمين، وكيفية تنفيذها[1].

ويبدو شمول التشريع الإسلامي في أمر آخر، وهو: النفاذ إلى أعماق المشكلات المختلفة وما يؤثر فيها، وما يتأثر بها، والنظر لها نظرة محيطة مستوعبة مبنية على معرفة النفس الإنسانية، وحقيقة دوافعها، وتطلعاتها، وإشراقها، ومعرفة الحياة البشرية، وتنوع احتياجاتها، وتقلباتها، وربط التشريع بالقيم الدينية، والخلقية بحيث يكون التشريع في خدمتها وحمايتها[2].

فالنظم الإسلامية ما ضاقت عن حاجة، ولاوقفت عقبة في سبيل مصلحة، أو عدالة. بل وسعت مصالح الناس، على اختلاف أجناسهم، وألسنتهم، وألوانهم،إذ كانت الدولة الإسلامية في عصورها الذهبية، تمتد رقعتها من بلاد الصين شرقاً، إلى جبال أسبانياً غرباً.

وكان البحر المتوسط بحيرة إسلامية، تخفق الراية الإسلامية على ممالكه وكانت هذه الولايات المختلفة تضم أمماً متباينة الأجناس، والعادات والأديان، والمصالح من عرب وفرس وروم وغيرهم، وقد نظمت الدولة الإسلامية شؤون هذه الأمم، والشعوب بنظم وتشريعات إسلامية[3].

---

(١) د. عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، ص ٣٠.

(٢) د. يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، ص ١١٥–١١٦.

(٣) محمد صالح عثمان، وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية، ص ١٧٠ .

رابعاً: شمول الأخلاق في الإسلام:

ومن أهم خصائص وسمات الاتجاه الخلقي في الإسلام: الشمول، وذلك لشمول الإسلام لجميع جوانب الإنسان في الإيمان والعبادة،وفي المعاملة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، اتسمت الأخلاق بالشمول، لقوة وعظمة العلاقة بين الإنسان وخالقه القائمة على العبودية لله وحده، لا شريك له، والدينونة لله وحده، بلا منازع، وشمول هذه العبودية لكل شيء[1].

فالاتجاه الخلقي للإسلام لم يدع جانباً من جوانب الحياة الإسلامية، إلا رسم له المنهج الأقوم والأمثل لقواعد السلوك.. ففي جانب الإيمان يقول الرسول – صلى الله عليه وسلم–: "أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم اخلاقا "[2].

فقوله – صلى الله عليه وسلم – صريح في أن الأخلاق من الإيمان، ولذا عد الإسلام الإيمان براً، قال الله تعالى: ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ**﴾ [**البقرة**: ١٧٧] فالبر صفة للسلوك الخلقي.

ومن هنا كانت الأخلاق في الإسلام لا تدع جانباً من جوانب الحياة الإنسانية. روحية أو جسمية، أو دينية أو دنيوية.. عقلية، أو عاطفية.. فردية، أو اجتماعية إلا رسمت له المنهج الأمثل للسلوك الرفيع[3].

---

(١) سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي، ص ٨١.

(٢) رواه أحمد في مسنده ج ٢، ص ٥٠، ٤٧٢، ٥٢٧، ورواه الترمذي في صحيحه، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها ج ٥، ص١١٠، وقال حديث حسن صحيح.

(٣) د. القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، ص ١١٠.

وما من خصلة حث عليها القرآن الكريم، إلا كان تقدير جمالها بمقدار نصيبها من الوازع النفساني، أو مقدار ما يطلبه الإنسان من نفسه، ولا يضطره أحد إلى طلبه [1]. ومن هنا: كان الشمول بين جوانب النفس سمة للاتجاه الخلقي في الإسلام، وأن من أخلاق الإسلام ما يتعلق بالفرد في كافة نواحيه. جسماً له ضروراته، وحاجاته، يمثل هذا قوله سبحانه وتعالى ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا** ﴾ [**الأعراف**: ٣١] وقول الرسول – صلى الله عليه وسلم –: " إن لبدنك عليك حقاً " [2].

وعقلاً له مواهبه وآفاقة. قال تعالى: ﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [**يونس**: ١٠١].

ونفساً لها دوافعها ومشاعرها وأشواقها. قال تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ [**الشمس**: ٩، ١٠].

فالإسلام يتجلى شموله في أنه: يتناول الإنسان والكون والحياة، ثم تناول الإنسان من جميع جوانبه، الخارجية المادية، والداخلية الروحية، لتستقيم حياته وسلوكه وأخلاقه، وقد ربط بينهما الإسلام بتوازن دقيق، قال تعالى ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ [**القصص**: ٧٧].

---

(١) العقاد، الفلسفة القرآنية، ج ٧، ص ٣٦، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد.

(٢) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع، ولم يرد عليه قضاء ج٤، ث ٢-٩.

وبذلك وازن الإسلام بين روح الإنسان وجسده، وبين فرديته وجماعيته، وبين دنياه وآخرته، فلا تنشطر سريرته وحياته أشطاراً مختلفة، كما هو الحال في المذاهب البشرية الأخرى[1].

والإسلام لا يلائم بين المادة والروح، ويوفق بين الدنيا والآخرة، ويربط بين العبادة والحياة، بل ينظر إلى الحياة على أنها وحدة متكاملة توظف الإنسان على أن يؤدي حق ربه، وحق نفسه، وحق غيره. بكل دقة وأمانة وتساو وتنسيق، وبهذا يتسنى للإنسان أن يمارس الحياة الاجتماعية بكل طاقاته، وأشواقه، على أسس مبادئ الإسلام، القائمة على الشمول، والتي توافق الفطرة، وتتلاءم مع واقعية الحياة[2].

ومن أخلاق الإسلام ما يتعلق بالأسرة، كالعلاقة بين الزوجين، وفضيلة هذه العلاقة أنها علاقة سكن، تستريح فيها النفوس إلى النفوس، وتتصل بها المودة والرحمة والمشاركة القلبية والوجدانية[3].

قال تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [**الروم**: ٢١].

وقال تعالى: ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [**النساء**: ١٩].

---

(١) د. محمد نبيل غنايم، ود. عمر سليمان الأشقر وآخرين. دراسات في الثقافة الإسلامية ص ٢٣، ط: الثانية، مكتبة الفلاح بالكويت سنة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

(٢) عبد الله ناصح علون، هذه الدعوة، ما طبيعتها ؟ ص ٤٣، ط: الثانية، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة بالقاهرة سنة ١٤٠٦/١٩٨٦م.

(٣) د. أحمد السايح، وصبري عبد الرؤوف، الأسرة المسلمة، ص ٦٩ ط الدار المحمدية. القاهرة، ١٩٨٠م.

ومن أخلاق الإسلام في الأسرة: العلاقة بين الأبوين والأولاد، والعلاقة بين الأقارب والأرحام.

ومن أخلاق الإسلام: ما يتعلق بالمجتمع في آدابه، وفي اقتصاده، ومعاملاته وفي سياسته وحكمه[١].

ومن أخلاق الإسلام: ما يتعلق بالحيوان والطير، لأن من فضائل الإنسان المهذب: أن يكون رؤوفاً بالضعفاء، عطوفاً على البوساء، رفيقاً بالمحتاج إلى الرفق من الخلق، رحيماً بمن مسه الضر، وعضه الدهر، جاهداً في كشف ضره، وتفريج كربه والإحسان إليه، والعطف عليه، متخلقاً بهذه الأخلاق الإسلامية الفاضلة، يجد فيها امتاع نفسه، وانشراح صدره، وارتياح قلبه، بريئاً من القسوة وتحجر القلب، وجمود العاطفة لا بالنسبة لأخية الإنسان فحسب. بل وكذلك بالنسبة للحيوان الأعجم، الذي لا يملك لنفسه نفعاً، ولا عنها دفعاً، بل يكون به أرفق وله أرحم، ويسلك صفات الرحماء من الناس ذوي النفوس الزاكية، والقلوب النقية الصافية التي ترحم الضعيف وتبره[٢].

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – "الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء "[٣].

---

(١) د. يوسف عبد الهادي الشال، الإسلام وبناء المجتمع الفاضل، ص ١٩٦–٢٨١، ط: الأزهر سنة ١٣٩٢هـ / ١٩٧١م.

(٢) حسنين محمد مخلوف، الرفق بالحيوان، ص ٥، ط: مطبعة المدني بالقاهرة سنة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.

(٣) رواه أحمد في مسنده ج ٢، ص ١٦٠ .

الفصل الثاني

علاقات إنسانية

المبحث الأول: *التفاهم بين الأديان*

الإنسان في التصور الإسلامي، قمة الكائنات الحية، التي تعيش على وجه البسيطة، وأفضلها وأكرمها. لما أودعه الله فيه من مزايا، وميزه من صفات.

والإسلام يريد أن يعيش الإنسان في جو الاطمئنان، والاستمتاع بالحياة الإنسانية استمتاعاً يرفع الإنسانية، فوق مستوى الاحتكاك، والصراع، والشك.

وإن المؤمن في نظر الإسلام هو. المحسن، والمحسن هو صاحب الوجدان الرفيع، وهو صاحب الإنسانية في سلوكه مع نفسه ومع غيره.

قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً**﴾ [**النساء**: ١].

فالله سبحانه وتعالى أوجد الإنسانية من نفس واحدة، وأنشأ من هذه النفس زوجها، ومنهما نشر في الوجود رجالاً كثيراً ونساءً فالإنسانية تنتهي إلى تلك النفس الواحدة[(١)].

وقد أوضح هذا بقوله في آية أخرى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ**

---

(١) انظر: د. أحمد السايح، الفضيلة والفضائل في الإسلام، ص ٧٤، ط: مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ١٩٩٨م.

أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [**الروم**: ٢١].

وقوله تعالى في الآية السابقة ﴿**وَبَثَّ مِنْهُمَا**﴾ أي نشر من تلك النفس وزوجها المخلوق منها، بطريق التوالد، والتناسل: رجالاً كثيراً ونساءً، وترك التصريح بها للاكتفاء بالوصف المذكور.

وقال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ**﴾ [**الأنعام**: ٩٨].

فالله هو الذي أنشأ الإنسانية، من نفس واحدة، وهي الإنسان الأول، الذي تسلسل منه سائر الناس، بالتوالد.. وهو آدم عليه السلام.

وفي إنشاء جميع الناس من نفس واحدة: آيات بينات، على قدرة الله، وعلمه، وحكمته، ووحدانيته.

وفي التذكير بذلك.. إيماء إلى ما يجب من شكر نعمته، وإرشاد إلى ما يجب التعاون، والتعارف، بين البشر.

وأن يكون هذا التفرق إلى شعوب وقبائل.. مدعاة إلى العمل الجاد، والتعاون الصادق.. لا إلى التعادي والتقاتل، وبث روح العداوة والبغضاء بين الناس [١].

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [**الحجرات**: ١٣].

---

(١) انظر: د. أحمد السايح، المصدر السابق، ص ٩.

خلق الله الناس متساوين من أصل واحد هو آدم وحواء وصيرهم بالتكاثر جموعاً عظيمة وقبائل متعددة. ليتم التعاون، والتعارف وإن تباعدت ديارهم وأوطانهم وتباينت عاداتهم، واختلفت لغاتهم وأجناسهم.

وقال الله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ**﴾ [**الروم**: ٢٢].

وللناس مع بعضهم روابط وثيقة، وصلات متينة، ومعاملات لا غنى لهم عنها وليس بميسور لأي إنسان كائناً ما كان أن يعيش منعزلاً، ولو كان شجاعاً هماماً وبطلاً صنديداً.

والطبيعة البشرية تحتم على الإنسان. أن يندمج بالناس، ويختلط بهم ويستعين بذوي الخبرة منهم، وأن يسترشد بنصح الناصحين، وتوجيه النابهين.

وإذا كان من الضرورة الإنسانية في الإسلام: أن لا حياة للأجسام إلا بالأرواح فكذلك الأعمال على اختلاف أنواعها لا حياة لها إلا بالثقة المتبادلة التي يجتني من ورائها الاطمئنان والنجاح.

فبالثقة تنتظم الأمور، وتنجز الشؤون، وتستقيم الأعمال، وتؤدى المصالح على أحسن حال. والثقة لا تتحقق إلا إذا أدى كل إنسان ما عهد إليه وما ألزم به نفسه.

فبالثقة وحدها. يسعد الناس، ويصلون إلى الفوز والفلاح، والتعاون المثمر، وإذا انعدمت الثقة ذهب الاطمئنان، وأصبح كل إنسان يخاف الآخر، ولا يطمئن إليه في أمر من الأمور، ولن تكون

الثقة إلا عن أمانة ووفاء. فليس من الإيمان أن يؤتمن الإنسان على مال فيجحده، أو على عرض فيهتكه، أو على سر فيذيعه، أو على عمل فيهمله، أو على نصرة صديق فيخذله [1].

وقد لا يخفى على باحث. أن انبعاث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان منعطفاً تاريخيّاً في حياة الناس جميعاً، وتحولاً حضاريّاً متميزاً في نهج حياتهم وتعاملهم. تحول الخطاب فيه من قومية الأديان، ومحدودية مقاصدها. إلى عالمية الإسلام وشمولية دعوته، وتكامل مقاصده، ومن عزلة المجتمعات البشرية وتضادها وتصارعها إلى وحدة الأسرة البشرية، وتعاون مجتمعها، حيث سمع الناس لأول مرة في تاريخهم الإنساني فكرة المجتمع الإنساني الواحد.

كما سمعوا أيضاً لأول مرة فكرة التعايش السلمي بينهم من غير تمايز. وكان النبي – صلى الله عليه وسلم – يعمل على نشر الإخاء الإنساني الذي يتجاوز المسلمين إلى غير المسلمين.

روى الطبراني، أن نبي الله – صلى الله عليه وسلم – خطب الناس بمنى في وسط أيام التشريق وهو على بعير. فقال: " يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لافضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود، إلا بالتقوى. ألا هل بلغت ؟ قالوا: نعم. قال: فليبلغ الشاهد الغائب " [2].

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٧، ٤٨.

(٢) التاج الجامع للاصول، ج ١، ص ٦١.

وعن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- "إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم، ولا إلى أجسامكم، ولا إلى أموالكم. ولكن ينظر إلى قلوبكم. فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه، وإنما أنتم بنو آدم وأحبكم إليه أتقاكم" [(١)].

فاهتمام الإسلام بالناس، فيه ترسيخ معنى الإنسانية العام، في نفس المسلم الذي يقرأ القرآن، ويستمع إليه، ويعمل به. كما أن هذا كله. يبين وحدة الجنس البشري.

والقرآن الكريم.. لا يخاطب العرب فقط، ولا قومية معينة، ولا شعباً معيناً بل يخاطب الإنسان بوجه عام.

فالإسلام الحنيف جاء ليقيم بين البشر جميعاً، رابطة الإنسانية القائمة على ارتباط البشر بالله الخالق، عز وجل.

ومن هذا نعرف: أن الإسلام يلائم الفطرة التي فطر الله الناس عليها.. فهو يؤكد في وضوح أن الدين الإسلامي قد نظر نظرة فاحصة، دقيقة للإنسان في ذاته، وتركيب كيانه النفسي والخلقي، والاجتماعي.

فالحياة في الإسلام.. تخضع لنظام دقيق، لا يسمح لجانب منها، أن ينمو على حساب جانب آخر.. وإنما تتوازن جوانب الحياة كلها، على نسق فريد، جاء به الإسلام. وأما الأحياء من بني البشر،

---

(١) تفسير القرطبي ج١٦ ص٣٤٢، وعزاه إلى الطبري في كتاب "آداب النفوس".

فإن الإسلام نظر إليهم نظرة العارف بأسرارهم، وما يصلحهم.

واعترف الإسلام بأن للإنسان مطالب، لروحه، وعقله، وبدنه.. ونظمها بحيث تحقق له أفضل ألوان الحياة.

الإنسان في داخل نفسه، ومع حاجاته الذاتية، والروحية، والعقلية، والبدنية.

والإنسان في أسرته. تلك المملكة الصغيرة، التي يصلح المجتمع العالمي كله بصلاحها، وينهار ويتهاوى على سكانه بفسادها، أو جنوحها.

والإنسان مع المجتمع الكبير.. والإنسان مع الكون كله.. الإنسان في كل هذه المجالات موضع اهتمام الإسلام.. ومن أجله شرع تلك النظم الخالدة الصالحة، لكل زمان ومكان، والمحققة للسعادة في الدنيا والآخرة.

الإنسان في حد ذاته نفسه.. العالم المترامي، المليء بالرغائب، والحاجات التي يسعى عمره لتحقيقها.. وتلك الجوارح من سمع، وبصر، وفؤاد، وأيد، وأرجل. يسخرها الإنسان لإشباع حاجاته الروحية، والعقلية، والبدنية.

والشخصية الإنسانية في الإسلام حقيقة حية. والأسرة الاجتماعية في الإسلام، حقيقة حية.

والإسلام لا يهدم شيئاً من كيان الاجتماع الذي استفاده بنو الإنسان، من أطوار حياتهم الاجتماعية في الحقب الطوال.. لأن

المفهوم من سير الهداية الإلهية، كما يسردها القرآن الكريم، أن حياة النوع الإنساني.. تاريخ متصل، يتم بعضه بعضاً، وتنتهي إلى التعارف بين الشعوب والقبائل، في أخوة عامة، لا فضل فيها لقوم على غيرهم إلا بالعمل الصالح.. ولهذا يحرص الإسلام على كيان الاجتماع في الشخصية الفردية، وفي الأسرة، وفي الإيمان بوحدة النوع.

وأنت تجد أن القرآن الكريم يخص من هذا الكون مخلوقاً هو الإنسان. فيتحدث عنه مرات كثيرة، بل يخصه بالمخاطبة، لأنه هو المقصود، ولكنه في الوقت نفسه يشعره بموقفه من هذا الكون.

فالإنسان أولاً: نوع من أنواع أخرى في هذا الكون، يشترك معها في أمور، ثم يتميز عنها، فهو مخلوق من تراب في الأصل.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [**آل عمران**: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿**أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ**﴾ [**الكهف**: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿**فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ**﴾ [**الحج**: ٥].

وقوله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ**﴾ [**الروم**: ٢٠].

ويقول بهذه المناسبة [ألكسيس كاريل] في كتابه "الإنسان ذلك المجهول" بعد أن بين المقابلة بين المواد الكيماوية والتي يتركب منها الجسم البشري، والتي يتكون منها التراب بمختلف أنواعه يقول: إن الإنسان مخلوق من تراب بالمعنى الحقيقي الحرفي لهذه الكلمة وقد

جاء في الآية قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧].

والإنسان ثانياً: نوع من أنواع الحيوانات يدخل في تصنيفها، ويشترك معها في أمور قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾ [النور: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

والإنسان ثالثاً: نوع متميز عن الحيوان، كما يبدو في قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] وذلك من جهة خلقه وتكوينه الجسمي، كما تشير الآيات أكثر من مرة إلى تسويته ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ [السجدة: ٩].

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ [الحجر: ٢٩].

﴿فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧].

﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

وتميزه كذلك من جهة العقل والعلم الناميين بسبب الحواس كما تشير إلى ذلك الآية ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وكما تشير الآية الآخرى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وهو علم يستطيع أن يعبر عنه ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥].

بل هو علم قابل دائماً للنمو والزيادة ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [**طه** : ١١٤] .

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ [**فصلت** : ٥٣] .

والإنسان رابعاً : يتميز بجانب روحي، أشارت إليه آيات كثيرة، كقوله تعالى ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [**الحجر** : ٢٩]، وهو الجانب الذي رفع مرتبة الإنسان وجعله في مقام من التكريم فأسجد الله له الملائكة ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [**الإسراء** : ٧٠] . وعلى تنمية هذا العنصر من الإنسان بنى الحافظ والمحدث الحكيم الترمذي . وغيره من علماء السلوك نظريتهم في ترقية الإنسان في مدارج الرقي الروحي نحو الله (١) .

وفي القرآن بعد هذا آيات كثيرة، في ذكر نفسية الإنسان وما يميل إليه من زينة الدنيا وشهواتها، وما يضطرب فيها، من مختلف المشاعر والعواطف، وما فيه من الصراع الدائم الذي ابتدأ منذ قصة آدم ولا ينتهي إلا بانتهاء قصة الإنسان كلها على هذه الأرض .

وفيه آيات أخرى لتوجيه الإنسان في هذه الميول والمشاعر، وفي ذلك الصارع المحتم (٢) .

والإنسان في عقيدة القرآن هو الخليفة المسؤول، بين جميع خلق الله . . يدين بعقله، فيما رأى وسمع . ويدين بوجدانية فيما طواه

---

(١) انظر الأكياس والمغترين للحكيم الترمذي ص ٢٠ تحقيق الدكتور أحمد السايح، والدكتور السيد الجميلي ،ط، دار المثقف العربي القاهرة ١٩٨٨م .

(٢) انظر : محمد المبارك . العقيدة في القرآن ص ١٨ .

الغيب، مما لا تدركه الأبصار والأسماع.

والإنسانية من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة، لها نسب واحد وإله واحد، أفضلها من عمل حسناً. واتقى سيئاً.

والإنسان مسؤول عن عمله، ولا يؤخذ فرد بوزر فرد ولا أمة بوزر أمه.

قال تعالى: ﴿ **كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ** ﴾ [**الطور**: ٢١].

وقال تعال: ﴿ **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** ﴾ [**الأنعام**: ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿ **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [**البقرة**: ١٤١].

أما مناط المسؤولية في القرآن.. فهو جامع لكل ركن من أركانها يتغلغل إليه فقه الباحثين عن حكمة التشريع الديني أو التشريع في الموضوع.

فالإسلام الحنيف. ينظر إلى الإنسان نظرة تضعه فوق مستوى الكائنات الحية جميعاً، في هذا الكوكب الذي أقامه الله تعالى فيه. ليكون خليفة له عليه.

وقد استعمل القرآن الكريم لفظ الإنسان في كثير من الآيات فقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** ﴾ [**الحجر**: ٢٦].

﴿ **وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ** ﴾ [**السجدة**: ٧].

﴿ **وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً** ﴾ [**الإسراء**: ١١].

﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** ﴾ [**إبراهيم**: ٣٤].

﴿ **وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً** ﴾ [**الكهف**: ٥٤].

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴾ [العلق : ٦] .

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ﴾ [الانشقاق : ٦] .

وكلمة الناس الدالة على الجنس البشري، يتكرر استعمالها في آيات متعددة. وكثير منها ورد خطاباً للبشر عموماً.. كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [الحجرات : ١٣] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة : ٢١] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا ﴾ [البقرة : ١٦٨] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم ﴾ [يونس : ٢٣] .

وورد في معرض الحض على تقديم الخير للناس:

﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة : ٨٣] .

﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

﴿ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ [الأعراف : ٨٥] .

﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [النساء : ١١٤] .

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [النساء : ٥٨] .

وكلمة الناس استعملت في القرآن الكريم، بمعنى الجنس البشري لا بمعنى المسلمين أو العرب.. بدليل قوله تعالى في الآيات التالية مما لايمكن حمله إلا على الناس عموماً.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾[البقرة : ٢٤٣] .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾ [**البقرة** : ١٨٩] .

﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [**آل عمران** : ١٤٠] .

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾ [**آل عمران** : ١٤] .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [**الأعراف** : ١٥٨] .

فالقرآن الكريم لا يخاطب قومية معينة، ولا شعباً معيناً. بل يخاطب الإنسان بوجه عام.. ويتحدث عن الأمم ﴿ **كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ** ﴾ [**الرعد** : ٣٠]. واستعمل القرآن كذلك كلمة البشر، للدلالة على الجنس الإنساني الواحد وقد استعملت هذه الكلمة، في أكثر من موضع، كقوله تعالى :﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا** ﴾ [**الحجر** : ٢٨] .

﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا** ﴾ [**الفرقان** : ٥٤] .

وقوله :﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ** ﴾ [**الروم** : ٢٠] .

وقوله :﴿ **قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ** ﴾ [**إبراهيم** : ١١] .

وقوله :﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ** ﴾ [**الكهف** : ١١٠] .

وقوله :﴿ **وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ** ﴾ [**الأنبياء** : ٣٤] .

والآية القرانية :﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾ [**الحجرات** : ١٣]، تشير بوضوح إلى أن كلمة الناس.. تشمل :

أولاً : الذكور والأناث.. فهما جنس واحد. كما أشار إلى ذلك

في آيات أخرى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾[الروم : ٢١] .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٩] .

ثانياً : تشير الآية بوضوح إلى أن البشرية تتألف من مجتمعات قبلية وشعوب أو أقوام . وكلمة الناس هي تعبير عن الجنس العام الذي يشملهم جميعا .

وأخيراً فإن الآية تشير إلى اتجاه تطور البشرية ، أسراً وقبائل وشعوباً في اتجاه التعارف وهو المعرفة المتبادلة من جميع الأطراف . . وهو الشرط الأساسي لتحقيق التعاون الذي أوصى به القرآن في قوله تعالى :﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة : ٢] .

إن الإسلام جاء كما يفهم من النصوص القرآنية ، ليقيم بين البشر جميعاً رابطة الإنسانية ، القائمة على ارتباط البشر جميعاً بالله الخالق جل وعلا . . فهم جميعاً عباد الله . لا ليجعل شعباً معيناً ، شعبه المختار .

والرسول الذي أمر بتبليغ الإسلام . . خوطب في القرآن الكريم على هذا الأساس ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ : ٢٨] .

﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] .

إن هذا الاتجاه الإنساني . ظاهر في تعاليم الإسلام ، وتوجيهاته ،

والقرآن يصرح بأن الإنسان هو خليفة الله في الأرض.

والقرآن حين يتحدث عن الإنسان.. فإنه يتحدث عن الإنسان حديثاً يملأ الصدر بدفء الأمل، وسعة الرجاء، ويفتح عليه صفحات مشرقة للوجود، تغري الإنسان بالوقوف عند كل موجود[1].

فأنت ترى أن النصوص القرآنية تتحدث عن الإنسان، وتارة أخرى عن بني آدم، ومرات أخرى تتحدث عن الناس. وهذا لا تخفى دلالته على أي عقل مدرك للغة الخطاب في القرآن الكريم التي تستخدم موازين للتعبير غاية في الدقة، فتبين متى يكون الخطاب للإنسان والناس عامة[2].

وبعد كل هذا نستطيع أن نوضح: إن الإسلام يتسم بالفردية، على أساس أن الدين مسألة تخص الفرد من حيث هو - أي الدين - علاقة بين الإنسان وخالقه بكل ما تقتضيه هذه العلاقة من طاعة وخشوع وتأمل؛ وأنه في الآن نفسه يتميز بالجماعية لارتباطه بتكوين مجتمع شرع له قوانين وأحكاماً ومبادئ تضبط مختلف شؤونه.

الإسلام بهذا دين يتجه للفرد والجماعة، بل هو ينطلق من الفرد ليصل إلى الجماعة؛ وينظر إلى الفردية في مدلولها الفلسفي والنفسي الذي هو رديف الشخصية، وكذا في بعدها الاجتماعي الذي يجعلها حالة الفرد بصفته وحدة ضمن الوحدات المكونة للمجتمع،

---

(١) انظر: الدكتور أحمد السايح، الفضيلة والفضائل في الإسلام. ص ١٨، ط مركز الكتاب لنشر. القاهرة.

(٢) الاستاذ / فهمي هويدي، مواطنون لا ذميون، ص ٨١، ط: دار الشروق: ١٩٨٥م.

بل ما في هذه الوحدة من خصائص ومؤهلات تجعلها صالحة للحياة في ذلك المجتمع، وتبعدها عن كل مدلول سلوكي يكون به الفرد أنانياً منعزلاً عن الآخرين لا يرى إلا نفسه يعتبرها الغاية التي بها يلغي الآخر.

ومن ثم عني الإسلام بالفرد عناية فائقة تتمثل في عدة مجالات أبرزها ثلاثة:

أولاً: تمتيعه بحقوق، بها يعيش إنسانيته في حريّة وعزة وكرامة ومساواة مع الآخرين.

ثانياً: تكليفه بواجبات هي التي تحدّد دوره، وتجعل منه شخصاً مسؤولاً في المجتمع ينهض بمهمات تخول له مكانة وأهمية، وقبل ذلك تجعله يقدّم منافع في هذا المجتمع.

ثالثاً: إعداده إعداداً صالحاً لكي يكون قادراً على الاستفادة من حقوقه والقيام بواجباته، وهو مجال يتحقق بالتربية السوية المتكاملة التي تراعي العنصرين المكونين لفردية الإنسان، وهما جسده وروحه.

وبناء على هذه العناية بالفرد تتم العناية بالجماعة كذلك، لأن كل ما يخصه يفضي في النهاية إليها إيجاباً وسلباً.

إذ المجتمع في المطاف هو هذا الفرد الذي يشكل الأساس واللبنة الأولى والنواة التي تعطي الثمار.

ومن هنا كان إعداد الأفراد على النهج القويم تهييئاً لمجتمع سليم صحيح ؛ لأن نطاقهم يتسع شيئاً فشيئاً في خلايا وأسر تكبر بالتدرج

وتنمو إلى أن يتم الوصول إلى هذا المجتمع [(١)] .

والإنسان هو المنطلق في هذه الرابطة الإنسية، باعتباره مجموعة من القدرات والطاقات هي التي تشكل ملامح بشريته، وتثبّت فيه الإحساس بالوجود في ذاته ومع الآخرين، وتمنحه إمكانية العمل والإنتاج ووسائل الفعالية والتأثير.

ولا شك أن من بين تلك الطاقات، وربما من أهمها، ما هو كامن في غريزة الإنسان من حيث هو مخلوق ينتمي إلى أرض محددة يتحرك فيها بوعي منه أو لا وعي ويحاول انطلاقاً منها أن يحافظ على ذاته وينمي هذه الذات.

وإذا كانت الطبيعة الفطرية تمكن الإنسان في الأرض التي يعيش عليها ببعد أفقي فإن العنصر الروحي يتدخل ليرتفع بالإنسان عن طريق العقيدة والدين، ويعطيه بعداً سماوياً يتيح له التوازن اللازم للحياة الإنسانية الحق. بكل ما تقتضي من قيم وأخلاق فردية وجماعية، وما تتطلب من سلوك يحفظ علاقة الفرد بالكون وخالقه.

ومع الغريزة والروح، يتدخل العقل ليعمل في الوعي والإحساس والإدارة والفكر، فيوجه، ويخطط، وينفذ، ويضبط حركية الإنسان.

وهذا يعطي المواطنة مفهومها الصحيح أي كما يجب أن تكون في ذهن المسلمين وغيرهم ممن يعيشون في المجتمع الإسلامي، ويتبلور المفهوم في الولاء لهذه الدولة أو ذاك بكل ما تجسده من أرض وعقيدة

---

(١) انظر: الدكتور عباس الجراري، مفهوم التعايش في الإسلام ن ص ٢٨، مجلة الإسلام اليوم، العدد ١٤، السنة ١٤، المغرب، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

وتاريخ وحضارة وثقافة وواقع ومصير. أي بمجموعة من المبادئ والمقومات. يؤمن بها الجميع، ويتشربونها في عقلهم وأرواحهم ووجدانهم. فتغدو المحرك الذي يحث على المقاومة والنضال وعلى السعي لتنمية المجتمع في خط التطور والتقدم[1].

والإنسان المسلم قد تعلم من الإسلام أنه لا يعيش وحده في هذه الحياة، وإنما يعيش معه ناس آخرون، وأمم مختلفة المذاهب والعقائد.

والإنسان المتحضر، لابد وأن يكون على اتصال، بالأمم والشعوب – أيا كان هذا الاتصال – ومن الضروري للإنسان المتحضر أن يكون على ثقافة بأديان الأمم.

وقد فطن إلى هذا علماء الأمة الإسلامية انطلاقاً من دعوة الإسلام، التي تدعو المسلمين إلى أن يتعرفوا على الناس، ويقيموا معهم أواصر الصداقة، والتعاون، وتبادل المنافع، وما يفيد الإنسان في الأرض.

ومن شأن المسلمين، أن يتابعوا الخطى، فيما كان عن السلف الصالح، في غير تعصب جاهلي، أو شكلية ممجوجة.

وبهذا نمضي في الطريق، الذي وضحت معالمه، ونحن على بينه من أمرنا.

ولقد قدم القرآن الكريم الدرس المنهجي الموضوعي الأول، في مجال العلاقة بالأديان، ولقد حفل القرآن الكريم بالحديث المفصل،

---

(١) الدكتور عباس الجراري الإسلام اليوم ع١٤ ص٣٦ .

المستوعب عن الأديان، والعقائد والملل والنحل، والمذاهب المختلفة المتنوعة، وعرض مقالاتهم بدقة، واستقصاء [1].

وتجد ذلك واضحاً في حديث القرآن الكريم، عن اليهود والنصارى حيث فصل القرآن مقالاتهم، واعتقاداتهم، ومذاهبهم، ولم يعرضها متعجلاً في نص أو نصين، وإنما جاء فيها بفيض غزير زاخر، يتناولها من أقطارها، ويكشف عن خباياها وأبعادها. وعلى سبيل المثال: فإن الحديث عن بني إسرائيل، جاء في القرآن الكريم، من أكثر المسائل نصوصاً بعد العقائد.. تحدث القرآن الكريم، في المكي منه والمدني، على سواء، وفي السبع الطوال، وما بعدها، من المثاني والمئين، والمفصل، وتناولهم بالآية المفردة، وبالجملة المتصلة من الآيات [2].

وقد تحدث القرآن عن كثير من الأديان سماوية كانت أو وضعية. فكما تحدث عن اليهود واليهودية، والمسيح والمسيحية، تحدث كذلك عن عبدة الأصنام، والطاغوت والملائكة وسماها القرآن أدياناً [3].

قال تعالى: ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾ [**الكافرون**: ٦].

وفي مجال اعتراف الإسلام بالأديان.

يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ**

---

(١) د. محمد عبد الله الشرقاوي، مقدمة الرد الجميل لإلهية عيسى، المقدمة، ص ١٧، ط: دار الهداية بمصر، ١٤٠٦هـ.

(٢) المصدر السابق، ص ١٨، وراجع: د. عبد الستار فتح الله سعيد، في معركة الوجود بين القرآن والتلمود، ص ٦٩، ٧٠، ط: القاهرة.

(٣) د. أحمد شلبي، مقارنة الأديان، (اليهودية)، ص ٢٧، ط: مكتبة النهضة، ١٩٧٨م.

وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩].

ويقول أبو الحسن العامري المتوفى سنة ٣٨١هـ، في كتاب الإعلام بمناقب الإسلام.

إن مدار الدين يكون متعلقاً بالاعتقادات، والعبادات، والمعاملات، والمزاجر، فغير بعيد أن يعلم العاقل أدنى الرؤية أنه ليس ولا أحد من الأديان الستة التي لها خطط، وممالك، وهي المذكورة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

إلا وله اعتقاد بشيء يجري سعيه إليه، ومنهج في العبودية يتحرى بالتزامه إقامة الطاعة، وأوضاع في المعاملات ينتظم بها معاشهم، ورسوم في المزاجر يتحصن بها عن البوائق والأشرار (١).

(١) انظر: أبو الحسن العامري، مناقب الإسلام، ص ١٢٣.

والإنسان الذي يؤمن برسالة الإسلام، لا يستطيع إلا أن يصدق النبيين والمرسلين الذين صدقهم الإسلام، ودعا إلى الإيمان بهم.

وهذا يشكل حلقة في وحدة الإيمان التي أكد عليها الإسلام، وتبناها في جانبه العقدي، وتحدث عنها في القرآن الكريم.

ووحدة الإيمان هذه حقيقة تفرضها وحدة المصدر، بصورة قاطعة، لا تقبل الرد، أو التشكيك، ولا يغير من واقعها أبداً وجود فواصل البعد الزمني، بين الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى عباده.

وربما يكون لعامل الزمن أثره الواضح في اختلاف التشريعات التي يفرض فيها أن تنسجم مع المستوى الفكري والمعاشي، لمن تكون لهم ولكن الإيمان واحد في أساسه [1].

وهناك آيات في القرآن تشير في وضوح إلى حقيقة وحدة الإيمان، وتغيير التشريعات، قال تعالى: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ﴾ [**الشورى**: ١٣].

وقال تعالى: ﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** ﴾ [**المائدة**: ٤٨].

فالآية الأولى: تعني وحدة الإيمان في أسسه.

والآية الثانية: تعني متغيرات الشريعة، وما يعود إلى الأعمال.

والإيمان هنا يعني العقيدة، ممثلة بالأصول التي يقوم عليها الدين. ولن تجد هذه الأصول في الإسلام إلا مماثلة لتلك التي قامت

---

(١) د. أحمد عبد الرحيم السايح، فلسفة الحضارة الإسلامية، ص ٢٢.

عليها رسالات أنبياء ورسل، بعثهم الله لهداية الناس، على اختلاف العصور، وتباعد الأزمنة[1].

والأصول التي قامت عليها رسالات الأنبياء والرسل:

أولاً: الإيمان بالله تعالى رب العالمين، الذي لا إله إلا هو وحده المعبود لاشريك له، خالق كل ما في الوجود.

ثانياً: الإيمان بالغيب: اليوم الآخر، البعث، الجزاء، الجنة، النار، الثواب، العقاب، الملائكة.

ثالثاً: الإيمان بالنبيين والمرسلين، وتصديقهم، والأخذ بتعاليمهم، وإرشادهم، والعمل بما أنزل عليهم من وحي الله[2].

هذه هي أصول الإيمان التي حملها كل نبي بعثة الله تعالى. وقد جمعت هذه الأصول آيات من القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿**الٓمٓ ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**﴾ [**البقرة**: ١ - ٤].

يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وجنته، وناره، ولقائه، ويؤمنون بالحياة بعد الموت، والبعث[3].

فالإسلام في جانبه العقدي، أكد هذه الأسس تأكيداً واضحاً. ولكنه في الجانب الذي يستتبع الشريعة - أي جانب الالتزام والعمل

---

(١) د. أحمد السايح، الفضيلة والفضائل في الإسلام، ص٢٦، ط: الأزهر ١٩٨٤م.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٧ بتصرف.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٧ .

- كان الإسلام الفصل الأخير في تكامل التشريعات.

وإذا أخذنا كلمة الإسلام بمعناها القرآني، نجدها لا تدع مجالاً لهذا السؤال عن العلاقة بين الإسلام وبين سائر الأديان السماوية، فالإسلام في لغة القرآن ليس اسماً لدين خاص، وإنما هو اسم للدين المشترك، الذي اهتم به كل الأنبياء وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء [1].

فالدين منذ القدم هو الإسلام. وسمى الله منذ القدم مسلماً كل من اعتنق أسس هذه الديانة، ديانه الله، وسار على مضامينها من: إسلام الوجه لله، والأنقياد له والتوكل، وتسليم الأمور لمدبر الأمر، ومصرف الكون.

من هذا يتضح أن وصف الإسلام، ليس منصّباً على كل من آمن بدعوة محمد في عهد محمد - صلى الله عليه وسلم - أو من بعده فحسب. بل هو وصف ولقب أطلقه الله، من قبل على كلّ من آمن برسوله الذي بعث في زمنه، وبكل من وحد ربه، وأسلم وجهه، وقلبه وأمره كله لله رب العالمين [2]..

والمسلم في عرف القرآن هو كل من آمن برسوله الذي جاء إليه، وكل من وحد الله، والمتتبع لأي القرآن.

يجد أن كل شريعة، قامت على توحيد الله. قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾ [**الأنبياء**: ٢٥].

---

(١) انظر: الدكتور محمد دراز، الدين بحوث، ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، ص ١٧٥.

(٢) انظر: محمود بن الشريف، الأديان في القرآن، ص ٣١.

وكل رسول أو نبي بعث إنما دعا إلى الله، وإلى دين الله.. ودين الله واحد. حقيقته التوحيد، وجوهره الإيمان بالله دون شريك أو نظير [1].

فكلمة الإسلام في إطار اللفظ تعني في الأصل التسليم والخضوع. وفي مفهوم الدين، ومن خلال إطلاقها فيه، يراد منها: التسليم والخضوع لله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له.

وبهذا المعنى البسيط والتسليم والخضوع لأمر الله ومشيئته أطلقت على كل من آمن بالله، وسلم لأمر الله، عن أي طريق، وباتباع أي رسول ونبي، فاتباع كل الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى، وكل من يدين لله هم مسلمون بهذا المعنى، ويصح إطلاق الإسلام عليهم.

وفي آيات القرآن الكريم كثير من الآيات التي تشير إلى ذلك. إذ أن القرآن الكريم اعتبر كل من آمن بالله تعالى. والتزم بطاعة أنبيائه مسلماً [2].

- يقول نوح لقومه: ﴿ **وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [**يونس**: ٧٢].

- وإبراهيم يقول: ﴿ **رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً** ﴾ [**البقرة**: ١٢٨].

- وقال تعالى: ﴿ **وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ**

(١) راجع: المرجع السابق، ص ٣١.

(٢) راجع: الدكتور أحمد السايح، فلسفة الحضارة الإسلامية، ص ٢٥.

قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [**البقرة** : ١٣٠ – ١٣٢] .

– وأبناء يعقوب يجيبون أباهم ﴿ **قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ [**البقرة** : ١٣٣] .

– وقال موسى : ﴿ **يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ** ﴾ [**يونس** : ٨٤] .

– وقال السحرة لفرعون : ﴿ **وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ** ﴾ [**الأعراف** : ١٢٦] .

– وقالت بلقيس ملكة اليمن : ﴿ **رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [**النمل** : ٤٤] .

– وقال تعالى عن أنبياء بني إسرائيل : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا** ﴾ [**المائدة** : ٤٤] .

– وقال تعالى عن يوسف عليه السلام : ﴿ **رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾ [**يوسف** : ١٠١] .

– والحواريون يقولون لعيسى : ﴿ **نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [**آل عمران** : ٥٢] .

– وقال تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ** ﴾ [**المائدة** : ١١١] .

– أما محمد – صلى الله عليه وسلم – خاتم الأنبياء والمرسلين .

فـقـد جـاء في القـرآن الكريم عنه ﴿**وأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [**الزمر** : ١٢].

وتسـوق سـورة فـصلت هذا المبـدأ الإسـلامي للمـسلمين: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [**فصلت** : ٣٣].

إذن: لم يكن الإسلام، مقتصراً على فئة، دون فئة من المؤمنين فكل مؤمن بحكم إيمانه وتسليمه لأمر الله، وخضوعه لمشيئته، هو من المسلمين فالإسلام في هذا الإطار، يتسع ليشمل كل من وضع قدمه، وسار في مسيرة الإيمان[١].

وبالجـملة نرى اسم الإسـلام شـعـاراً عـامّـاً يدور في القـرآن على ألسنة الأنبياء وأتباعهم. منذ أقدم العصور التاريخية، إلى عصر النبوة المحمدية.

ثم نرى القرآن الكريم يجمع هذه القضايا كلها في قضية واحدة يوجهها إلى قوم محمـد – صلى الله عليه وسلم – وبين لهم فيها أنه لم يشرع لهم ديناً جديداً، وإنما هو دين ا لأنبياء من قبلهم:

ثم نراه بعد أن يسرد سيرة الأنبياء وأتباعهم، ينظمهم في سلك واحد، ويجعل منها جميعاً أمة واحدة، لها إله واحد، كما لها شريعة واحدة، ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾ [**الأنبياء** : ٩٢].

ما هذا الدين المشترك الذي اسمه الإسلام، والذي هو دين كل

(١) راجع الدكتور أحمد السايح، فلسفة الحضارة الإسلامية، ص ٢٧.

الأنبياء والمرسلين ؟ إن الذي يقرأ القرآن يعرف كنه هذا الدين. أنه هو التوجه إلى الله رب العالمين، في خضوع خالص، لايشوبه شرك، وفي إيمان واثق مطمئن، بكل ما جاء من عنده، على أي لسان، وفي أي زمان أو مكان دون تمرد على حكمه، ودون تمييز شخصي، أو طائفي أو عنصري بين كتاب وكتاب من كتبه، أو بين رسول من رسله يقول القرآن: ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾ [**البينة**: ٥]، ويقول ﴿ **قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ [**البقرة**: ١٣٦].

فالإسلام أصبح من بعد، وعندما بعث الله محمداً – صلى الله عليه وسلم – وبلغ رسالة ربه. اصبح مقتصراً على تلك الرسالة وحدها ومختصاً بها.

والآية الكريمة التي اعتبرت الدين عند الله الإسلام: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾ [**آل عمران**: ١٩]. لا تعني إلا مجموعة من المبادئ الإسلامية وتعاليم الإسلام[١].

وما ذلك إلا لأن معنى التسليم لأمر الله والخضوع لمشيئته، الذي يعنيه الإسلام في مضمونه البسيط. أصبح له في رسالة محمد عليه الصلاة والسلام أسس ثابتة.

وهذه التعاليم تمثل المضامين العقدية، وأصول الإيمان، التي أكدها الرسل والأنبياء، وتضيف إليها نظمها التشريعية المتكاملة

(١) الدكتور محمد عبد الله دراز، الدين، ص ١٧٦.

الشاملة، لمختلف جوانب الحياة.

إذن رسالة الإسلام هي الإسلام بعد أن جاء بالشريعة الدائمة، الصالحة لكل زمان ومكان. قال الله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾ [**المائدة**: ٣].

ومن هنا كان الإسلام يشتمل على:

١- امتداد زماني في المعتقد الديني، يعرض لقضية البشرية من نشأتها إلى غايتها في إيجاز وجمال.

٢- شمول موضوعي يغطي مجالات الحياة جميعاً: سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وعقدية، وتربوية، وفكرية، وأحداث تاريخية.

٣- شمول يضم الرسالات كلها، والمسلم مطالب بتصديق الأنبياء جميعاً[(١)].

لقد دعا الإسلام المجتمع الإسلامي إلى أن يكون متسامحاً مع نفسه ومع الأخرين ومتعايشاً معهم. وله إلى هذه الإرادة دواع وأسباب كثيرة يمكن إجمالها في دوافع ثلاثة هي:

أولاً: إن الإسلام في أساسه لا يقر التعصب كيفما كان، جنسياً أو دينياً، لقيام هذا التعصب على الهوى وحب الذات وحدها ورفض ما سواها وإلغاء الآخر ويضع الإنسان من حيث هو في مكان التكريم. يقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ**

---

(١) الدكتور أحمد السايح، فلسفة الحضارة الإسلامية، ٢٧، ٢٨، ٢٩.

الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [**الإسراء**: ٧٠] إذ أن الله كرم بني آدم بأن جعلهم في ذواتهم أعزة غير أذلة، وبأن فضلهم وجعل لهم مكانة متميزة عن غيرهم من المخلوقات، فأتاح لهم قابلية التحضر واكتساب المعارف وتحقيق التطور.

وهذه الكرامة التي اختص بها الإنسان ذات أبعاد مختلفة: فهي حماية إلهية للإنسان، تنطوي على احترام حريته، وعقله، وفكره، وإرادته.

وهذه الكرامة تعني في النهاية، الحرية الحقيقة، وهي تلك الحرية الواعية المسؤولة التي تدرك أهمية تحملها أمانة التكليف والمسؤولية [١].

ويقول الله عز وجل: **﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾** [**الأحزاب**: ٧٢] وقد جاء هذا التكريم منذ النشأة الأولى، إذا خلقه الله من طين، ثم بث فيه من روحه وأمر الملائكة أن تسجد له تقديراً واحتراماً. يقول سبحانه: **﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾** [**ص**: ٧١، ٧٢] ثم لم يلبث أن مكنه من العلم الذي يستطيع به أن يحقق وجوده وحياته في سياق الوضع الذي أراده الله له، إذ يقول عز وجل: **﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾** [**البقرة**: ٣١].

---

(١) انظر الدكتور محمود حمدي زقزوق، دور الإسلام في تطور الفكر السياسي.

ثانياً: أنه يدعو إلى التعارف، أي إلى التجمع والتساكن وتبادل المنافع والمصالح والتعايش، في أخذ وعطاء، وفي تأثر وتأثير دائمين، بعيداً عن أية عصبية جنسية أو عنصرية إقليمية، أو نعرة ثقافية. وهو بذلك لا يرى فضلاً لأحد على الآخر إلا بالتقوى. يقول عز وجل:﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [**الحجرات**: ١٣] التقوى تعني طلب الوقاية التي هي الصيانة من كل ما قد يصيبك من ضرر ومكروه، والحفظ منها والحصانة والمناعة.

والتعارف يقتضي القدرة عليه، وأكثر ما تتمثل فيه القدرة هو قبول الاختلاف في الرأي.

ثالثاً: أنه ينطلق من أن الاختلاف كامن في طبيعة الحياة وجبلة الخلق، إذ أن الله تعالى خلق الكون وما فيه ومن فيه على أساس من الاختلاف البارز في التنوع والتعدد، مما يتجلى في مختلف الظواهر والمظاهر، يقول سبحانه:﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ** ﴾ [**آل عمران**: ١٩٠] ويقول:﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ** ﴾ [**الروم**: ٢٢] ويؤكد عز وجل هذه الحقيقة التي لا تبديل فيها فيقول:﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ** ﴾ [**هود**: ١١٨، ١١٩] أي أن سنة الله في الأرض تقوم على تباين البشر سواء أكان هذا التباين يتعلق بالجنس أم اللغة أم الدين، أم بأي مكون من مكونات الحضارة والثقافة.

والإسلام بذلك يرى الأمر خاضعاً لإرادة الله، والسر كامناً فيها، يؤكد الله تعالى هذه الإرادة وما يترتب عليها من عدم إكراه الناس على الإيمان فيقول: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ [**يونس**: ٩٩].

وإنها لآية كريمة تدل على أن الله لو شاء لجعل الناس في مستوى واحد من الفهم والإدراك المفضيين إلى الإيمان.

ولعلنا في هذا السياق نفهم معنى: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ [**البقرة**: ٢٥٦] أي لا ينبغي إلزام أحد بالدخول في الإسلام عن طريق الإرغام والاضطهاد والتخويف وما إلى ذلك. لأنه دين يقوم على التفكير والتدبر، علماً بأن الحرية الدينية – في منظور الإسلام – تنطلق من أن الدين عقيدة وإيمان، أي شعور ذاتي وداخلي للإنسان، يقوم على الاقتناع وميل النفس واطمئنانها، لأنه استسلام وانقياد لله عز وجل[1].

والذين يعيشون مع المسلمين في المجتمع الإسلامي من غير المسلمين فقد أظهر لهم الدين من التسامح المفضي إلى التعايش، ليس فقط ما يكفل لهم حرية ممارسة عقائدهم، ولكن كذلك ما يجعلهم مواطنين في هذا المجتمع مندمجين فيه، موفوري الحرية والكرامة، غير منعزلين ولا مهمشين، وتكفي الإشارة في هذا الصدد إلى أمور:

الأمر الأول: النهي عن مجادلة المسلمين لغيرهم ولا سيما أهل الكتاب. إلا بالتي هي أحسن.. يقول عز وجل: ﴿ **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا**

---

(١) المصدر السابق.

﴿وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وهو موقف دقيق لا شك بحكم دقة المسائل العقدية التي أثيرت وما زالت تثار على مستوى الحوار الإسلامي المسيحي طالما إن الإسلام – على نحو ما مر – دين يعتني بالفرد والجماعة معاً ويسعى إلى قيام مجتمع متآخ ومتكافل تسوده الحرية والتسامح، ويشعر فيه كل واحد بمسؤولية بنائه والحفاظ عليه.

الأمر الثاني: حرية ممارسة غير المسلمين لعقيدتهم، في طقوسها وشعائرها ومختلف مراسمها ومظاهرها الاحتفالية، واحترام العادات والأعراف ويصل حرص الإسلام على حرية العقيدة مع احترام ممارستها وعدم الإجبار على تعطيلها أو تغييرها مهما تكن ظروف الضغط متاحة، إلى حد أنه إذا طلب أحد المشركين من مسلم أن يؤمنه ويحميه، فعليه أن يستجيب له حتى لا يصيبه سوء، إلى أن يصل إلى مكان أمنه، وهو منزله أو مقر قومه. يقول تعالى ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦].

الأمر الثالث: إباحة مصاهرة أهل الكتاب وأكل طعامهم، يقول تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥] والمقصود طعام اليهود والنصارى سواءً ما يذبحونه أو يطبخونه، مما هو في الأصل غير جائز.

لا رتباطه بكيفية الذبح وما إليه مما هو مشترط عند المسلمين ولكن الله رخص لهم فيه بعد أن استقر أمرهم وعايشوا غيرهم، والسر

في هذه الحلّية كامن في احترام الإسلام لأهل الكتاب، باعتبارهم يتبعون ديناً سماويّاً تراعى فيه ضوابط النظافة والابتعاد عن غيرها [١].

أما مسألة الزواج وكونه مباحاً للمسلم من الكتابية، فإن وجهة نظر الإسلام في ذلك ترتكز على التعايش الذي بمقتضاه تبقى الزوجة على دينها لنفسها، في حين أن الكتابي لا ينبغي أن يتزوج بالمسلمة ما لم يعلن إسلامه، فذلك لأن المجتمعات تعارفت على نسبة الأولاد لأبيهم، ومخالفة ذلك تسليم بفرض الانتساب إلى غير دين الفطرة على مولود لا إرادة له. إن المجتمع الإسلامي بلغ شأواً بعيداً في تحقيق التعايش مع حماية ركائزه الإسلامية.

الأمر الرابع: إطلاق الإسلام على مخالفيه الذين يعيشون مع المسلمين في نفس المجتمع، أهل الكتاب، والكتابيين، وهي نسبة تتضمن اعتراف المسلمين بالكتب السماوية والرسل الذين بعثوا بها.

ويعترف الإسلام بأصحاب الملل والنحل الأخرى التي كانت معروفة قديماً وهي المجوسية، والسامرية، والصابئة، فقد روي أن بعض المسلمين ذكروا لعمر بن الخطاب قوماً يعبدون النار ليسوا يهوداً ولا نصارى ولا من قوم نزل عليهم الكتاب، فأشكل الأمر على عمر، فقال عبد الرحمن بن عوف: " أشهد على رسول الله انه قال: سنو ا بهم سنة أهل الكتاب "[٢].

---

(١) الاحكام السلطانية، ص ١٦٠-١٦١، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

(٢) كتاب الخراج لأبي يوسف بن إبراهيم، ص ٧٤(ط: السلفية، مصر ١٣٤٧هـ).

ويبلغ هذا التسامح مداه عند الممارسة والتطبيق على صعيد المجتمع كله انطلاقاً من توجيهات الرسول الأكرم، صلوات الله وسلامه عليه، وفق ما نقرأ في هذه الأحاديث الشريفة (مَن آذى ذميّاً فأنا خصمه ومن كنت خصمة خصمته يوم القيامة)[1].

و من قذف ذمياً حد له يوم القيامة بسياط من نار "[2].

و من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة "[3].

وهي توجيهات نفذها الخلفاء الراشدون وقواد الفتح في جميع ما عقدوا من عهود ومواثيق[4].

وإذا كانت الضرورة في كل عصر تقتضي تقوية هذه الدعائم، فإنها تبدو اليوم أكثر إلحاحاً، بسبب سوء فهم مدلول التعايش الحق – سواء بالنسبة للمسلمين أو لغيرهم – وما ترتب عليه من تفريط في شؤون الدين وابتعاد عنه في كثير من جوانب الحياة، وانحراف سلوك الأفراد والجماعات، وما نتج عن ذلك كله من ظروف متأزمة يعيشها المسلمون ومن يساكنهم بفعل عوامل داخلية وخارجية، وهي تقتضي البدء بإصلاح الذات ومعالجة مشاكلها بما يقوي المجتمع بل المجتمعات الإسلامية في بنيانها الداخلي، ويجعلها قادرة على الصمود ومواجهة كل التحديات والاعتداءات.

من هذا المنظور، يتبين أن غير المسلمين يعيشون مع المسلمين

---

(١) رواه الخطيب البغدادي عن ابن مسعود.

(٢) رواه الطبري في المعجم الكبير ٢٢/٥٧ برقم ١٣٥ .

(٣) رواه البخاري ومسلم وابن ماجة عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٤) انظر الدكتور عباس الجراري، الإسلام اليوم، عدد ١٤، ص ٢٩-٣٢ .

داخل المجتمع الإسلامي، متمتعين بمساواة تامة[1] في الحقوق والواجبات.

ولا يخفى على أهل العلم أن الأمن مطلب للإنسان الذي كرمه الله وهو نعمة تعم الناس جميعاً في المجتمع الإسلامي.

وأحكام الإسلام المنزلة من الله تعالى، والمبينة بسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – تدل على أن أمن غير المسلمين– الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي – على أنفسهم ومالهم وعرضهم، مضمون ما داموا ملتزمين بما تقضي به الأحكام.

وهي أحكام واضحة أوجبها الإسلام، ولم توجبها المصالح المتبادلة بين المسلمين وغير المسلمين، ولم تلزم بها المسلمين قواعد القانون الدولي، أو المعاهدات بين الدول الإسلامية وغيرها، لأن هذه الأحكام جانب مهم من شريعة الإسلام الكاملة، يجب على الدولة الإسلامية تطبيقها والعمل بها فهي واجب ديني، قبل أن تكون مصلحة سياسية أو التزاماً دوليّاً.

إن الإسلام يقيم مجتمعاً إنسانيّاً راقياً وهو لذلك يقيم العلاقة بين الناس جميعاً على أسس وطيدة من العدل،والبر، والرحمة.

نجد في القرآن الكريم آيات عديدة، تحث على العدل والرحمة، وترغب في هداية البشر على اختلاف الأجناس والألوان والمذاهب والعقائد.

---

(١) المصدر السابق.

فالإسلام لايريد للآخرين إلا الهداية، والرشد، والأمن، والاطمئنان.

ولما اشتدت مقاومة كفار مكة للدعوة إلى الحق لم يدْعُ الرسول - صلى الله عليه وسلم - ربه بإهلاكهم وإفنائهم، رجاء أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً.

وقد نصر الله رسوله، وكان من أسلم كفار مكة بعد الهداية والرشد أعظم الدعاة شأناً، بمنزلة الصحبة التي نالوها، وبطاعة النبي - صلى الله عليه وسلم - والعمل من أجل الإسلام والمسلمين.[1]

ونستطيع أن نقول بإيجاز: أن الإسلام يتميز في خصوص التعامل مع غير المسلمين بأمرين مهمين:

الأول: أن له نظاماً، يعد جزءاً لا يتجزأ من شريعته المتكاملة، وهو نظام للمسلمين يعملون به دائماً ويلزمهم بحكم عقيدتهم، ولم يترك الإسلام العلاقة مع غير المسلمين لتقلبات المصالح والأهواء، والنزعات والتعصب العرقي، أو اللوني، أو الديني.

لقد اعترف الإسلام بوجود الآخر؛ لذا دعا إلى أهمية التعامل معه، ووضع القواعد التي تضمن حق المسلمين في المجتمع، وحق الآخرين الذين يعايشونهم، دائماً أو بصفة مؤقته، ولم يكن ذلك معهوداً في الممالك والإمبراطوريات القديمة قبل الإسلام.

الثاني: أن القواعد التي وضعها الإسلام لتنظيم العلاقة بين

---

(١) انظر: الدكتور عبد الله التركي، الأمن في الإسلام، ص ٧٥-٧٦، بتصرف، ط: وزارة الأوقاف السعودية.

المسلمين وغيرهم في المجتمع الإسلامي، تتميز بالسماحة واليسر، وحفظ الحقوق، وتجنب الظلم لمجرد الاختلاف في الدين، فهناك حد أدنى يجب الحفاظ عليه، حتى في حالة العداء أو القتال، وهو الكرامة التي وهبها الله لبني آدم كما قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ [**الإسراء**: ٧٠] ﴾ وفي أوقات السلم والتعامل في شؤون الحياة المختلفة، يحرص التشريع الإسلامي على حفظ حق الحياة، وحفظ حق العمل والسعي والكسب المشروع لغير المسلم في المجتمع الإسلامي، ويبلغ التسامح بالنسبة إلى من يعايشون المسلمين بصفة دائمة من أهل الكتاب،حدا يصل إلى حفظ حقهم في التكامل الاجتماعي، بحيث ينال معونة الدولة الإسلامية من تقصر به حالته من العجز أو المرض أو الشيخوخة عن السعي والكسب.

ولا شك أن التشريع الإسلامي بهاتين الميزتين يضمن العيش الآمن لغير المسلمين على أن يكونوا أفراداً يعملون من أجل خدمة هذا المجتمع وتنميته.

وتكفل أحكام الشريعة، أن يتمتع غير المسلمين ممن يعيشون في المجتمع الإسلامي بالأمن على حياتهم ومالهم وعرضهم، وهذه الحماية مستمرة، سواء أكانوا من المعاهدين والمستأمنين أو من أهل الوطن، ما داموا ملتزمين بالعهد.

وتشمل حماية غير المسلمين في المجتمع الإسلامي الحماية من العدوان الخارجي ففي كتاب " مطالب أولى النهي " يجب على

الإمـام حـفظ أهل الذمـة، ومنع مـا يؤذيهم، وفك أسـرهم، ودفع من قصدهم بأذى "[1].

وفي " الفروق للقرافي " أن ابن حزم الظاهري، يجيز أن يقاتل المسلمون عن أهل الذمة " المواطنون " ويموتون دون ذلك.

وتشمل كذلك، الحماية من الظلم الداخلي، أي داخل المجتمع الإسلامي، وتعني دفع كل اعتداء عليهم، وتأمين أنفسهم وأبدانهم وأعراضهم وأموالهم وحقوقهم، التي تكفلها لهم الشريعة.

فأمن الذميين على أنفسهم وبدنهم مضمون بالشريعة ؛ لأن الأنفس والأبدان معصومة باتفاق المسلمين.

يقول الرسول – صلى الله عليه وسلم –: " من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً "[2].

وقال الإمام مالك والليث: إذا قتل المسلم الذمي غيله يقتل به.

وذهب الشعبي وأبو حنيفة، إلى قتل المسلم بالذمي، لعموم النصوص الموجبة للقصاص ولاستوائهما في عصمة الدم المؤبدة.

وتقطع يد المسلم بسرقة مال الذمي مع أن المال أهون من النفس.

والمال الذي يعد ذا قيمة عند غير المسلمين كالخمر والخنزير، فإنه إذا أتلفه أحد من المسلمين، فإن الإمام أبا حنيفة، يرى أن يعوض الذمي عنهما.

---

(١) انظر: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي. الأمن في الإسلام، ص٢٧-٢٨ بتصرف.

(٢) رواه البخاري وأحمد في المسند وابن ماجة.

وفي " الدّر المختار " من كتب الحنفية: يجب كف الأذى عن الذمي، وتحرم غيبته كالمسلم.

ويقول ابن عابدين في حاشيته: بل قالوا: إن ظلم الذمي أشد [1].

وكان من سنة الخلفاء الراشدين، دفع الضرر عن أهل الذمة وإعانتهم من بيت المال إن قعدت بهم الشيخوخة.

وقد ورد في كتاب " الخراج " لأبي يوسف، ما فعله عمر رضى الله عنه مع شيخ يهودي يسأل الناس، وما فعله مع المرضى من النصارى بالجابية من أرض الشام فقد أمر بالإنفاق عليهم من بيت المال.

لقد أدرك الخليفة عمر رضى الله عنه، أن أهل الذمة ينبغي أن لايعيشوا محرومين من القوت الضروري، أو العلاج من المرض وسط مجتمع مسلم، ولا نجد لذلك مثالاً في حضارة من الحضارات السابقة على الإسلام، بل نجد إنكاراً لهذه القيمة الإسلامية في بعض المجتمعات الحديثة.

والأساس لحقوق غير المسلمين الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي، لم يكن وليد تطور اجتماعي، أو تقدم حضاري، ولكن اساسه في القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ**

(١) ما جاء في أقوال الفقهاء. نقل من كتاب "الأمن في الإسلام ص٢٧-٢٨، لمعالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي.

وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [**الممتحنة**: ٨، ٩] وفي الآية الكريمة، إشارة إلى البر بالمخالف في الدين، وهي درجة لم يصل إليها أهل الحضارة المعاصرة من غير المسلمين.

ولم تقتصر الشريعة الإسلامية على حماية من يعيش في مجتمع مسلم، في حياته الدائمة والمستقرة بين أسرته، وفي مقر عمله الذي يكتسب منه، وهي حالة الذميين، وإنما تجاوزت ذلك إلى حماية المخالف في الدين، الذي يحضر إلى بلاد المسلمين للعمل، أو للتجارة أو لشأن من الشؤون المباحة كالسياحة أو العمل.

فالإسلام بذلك، لا يقاطع الآخر، مقاطعة شاملة ولا يحرم أصل التعامل مع غير المسلمين لتحقيق مصالح المجتمع الإسلامي من خلال تلك العلاقات.

ولقد وفرت الشريعة الإسلامية، حماية للمستأمن الذي يفد إلى بلاد الإسلام لشأن من الشؤون المباحة، ويدخل إلى ديار المسلمين بإذن منهم.

إن الآية الإسلامية تنطلق من نظرة شاملة للإنسان، وإن هذه الفطرة تبقى أساسية وصالحة للبشر في كل زمان ومكان، وثمة أمور يحسن أن نؤكد عليها وهي:

١- إن القرن القادم هو قرن التواصل البشري، وقرن التحاور الثقافي، ويمكن القول أنه قرن التدافع الثقافي وهذا توجه مهم ومفيد يلزم المسلمين استقباله والتعامل معه بإيجابية وارتياح لأن منهجية

الحوار بالبيان والحكمة، منطلق أساسي في منهج القرآن الكريم وأدبيات الدعوة إلى قيم الإسلام، التزاما بالتوجيه الرباني جل شأنه ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

٢- المسلمون مطالبون بالسعي للحوار مع الناس بما يحقق وضوح الرؤية ويجمع الكلمة على المبادئ والقيم الربانية الخالدة، وهذا في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ولعلك تدرك أن هذه الآية الكريمة جاءت لتقرر مبادئ إسلامية في علاقات المسلمين بغيرهم:

- مبدأ الاعتراف بالآخرين.
- مبدأ الحوار وأهميته.
- مبدأ استشراف المستقبل في ظل علاقات إنسانية سامية[١].

- إن الإسلام الذي نعتقده ونفهمه وفق النصوص الثابتة القاطعة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، هو دين الله تعالى الذي أرسل به الرسل جميعاً، منذ أبينا آدم عليه السلام وحتى سيدنا محمد ابن عبد الله عليه الصلاة والسلام، وفق مسميات ومعان تناسب الزمان والمكان لكل قوم مقتضى حالهم وحياتهم التي كانوا يعيشون،

(١) المؤتمر الإسلامي التاسع الذي عقده المجلس الاعلى للشؤون الإسلامية / في القاهرة ص٩٠.

وأن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بعث لتختم دعوة الله تعالى ورسالاته، ولتكتمل بما جاء به دعوة الأنبياء والرسل من قبله، في ظروف من الزمان والمكان تحقق للناس بها من أسباب التعارف والتعايش، ما يصلح معها مخاطبتهم جميعاً بتمام ما أراد لهم ربهم وخالقهم من مبادئ وقيم ومنطلقات، تستقيم معها حياتهم ويتحقق لهم بها الخير كل الخير، وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ [**البقرة**: ١٣٦].

– الأمة الإسلامية تحكم علاقاتها وتحاوراتها مع الآخرين قاعدة أساسية وهي التزام مبادئ وقيم وتعاليم دين الله وهذا بين في قول الله تعالى: ﴿**وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ**﴾ [**المائدة**: ٤٩].

– إن مبدأ المسلمين وهم يعرضون مبادئ وتعاليم الإسلام على الناس، تحكمه قيم وآداب لا ينبغي للمسلمين تجاوزها ومخالفتها ولا يصح معها تجريح وسباب معتقدات الأخرين، وهذا صريح في قوله تعالى: ﴿**وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ [**الأنعام**: ١٠٨].

– والمجتمعات الإسلامية وفق تعاليم الإسلام وقيمة، مأمورة بالتزام العدل وإنصاف الناس مع وجود الاختلاف في العقيدة وقيام الخصومة والشحناء معهم، حيث يأمر الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾ [المائدة: ٨].

– إن منهج القرآن يعلن للمسلمين ويؤكد عليهم أن البشرية مدعوة بأمر ربها جل شأنه، للتعارف والتعايش وفق القيم والمعايير الربانية على اختلاف أجناسهم وأعراقهم وأديانهم وألوانهم، وإن إتيان الحق ومجانبة الباطل هو أساس التنافس بينهم، وهو أساس معيار القرب والبعد من تقوى الله ومرضاته، وهذا في قوله تعالى:﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [**الحجرات**: ١٣].

– مجتمعات الأمة الإسلامية يحددها وهي تتعامل مع غيرها من الناس تعاليم الله وتوجيهات الرسول – صلى الله عليه وسلم – التي تطالبها وتؤكد عليها السعي في تحقيق مصالح العباد، وجلب النفع العام لهم، وأن ذلك السعي ا لصادق هو السبيل لنيل محبة الله تعالى والفوز بمرضاته حيث جاء في الأثر: "الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله " .

– إن الإسلام يؤكد أن أساس دين الله تعالى .يقوم على إقامة العدل بين الناس، وشيوع قيم الإحسان بينهم، والعمل على مكافحة الفحشاء والمنكر ومحاربة البغي في حياتهم وهذا كله في ضوء فهمهم لقوله الله تعالى:﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [**النحل**: ٩٠].

– المسلمون يعتقدون بمشروعية التدافع الإنساني، ويؤمنون بأن منهجية التدافع بين الناس القائمة على أساس التنافس، في جلب المصالح ودرء المفاسد، كفيلة بتحقيق الحياة الأفضل لهم جميعاً،

وتوفير الأمن والاستقرار، وصرف الفساد عن الأرض، وهذا مؤكد في قوله تعالى ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ [**البقرة**: ٢٥١] ومن جهة أخرى فإن التدافع بين الناس لجدير بحماية حرية الناس في معتقداتهم وأنماط حياتهم، وصيانة معابدهم على اختلاف مللهم، وهذا في قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً** ﴾ [**الحج**: ٤٠] ومن مفاخر الفقه السياسي في الإسلام، أن الشرائع جاءت لتحقيق مصالح العباد حيث أن مبناها يقوم على تحقيق أكمل المصلحتين ودفع أعظم المفسدتين.

- الأمة الإسلامية تعتقد وتؤمن بأنها شريكة مع غيرها في منهج الاستخلاف لعمارة الأرض وليست محتكرة لهذا المنهج، وأن غياب المسلمين أو تغييبهم عن المشاركة في منهج الاستخلاف أو تجريد هذا المنهج من القيم الربانية، سيؤدي لا محالة إلى فساد الأرض ودمار حياة الناس عليها، وهذا مؤكد في قول الله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا** ﴾ [**محمد**: ٩، ١٠].

- إن مبادئ الإسلام وقيمه تعلم المسلمين وتؤكد عليهم ألا يبخسوا الناس أشياءهم، وألا يحتقروا كدحهم وجهدهم في كل عمل بناء، يحقق الإعمار والإبداع الحضاري.. وتلزمنا تعاليم الإسلام احترام وتقدير كل عطاء خير في ميادين القيم والسلوكيات وفي ميادين الماديات والوسائل والمهارات يلتقي مع قيم وتوجيهات منهج

الاستخلاف الرباني في عمارة الأرض.. بل إن القرآن الكريم يعتبر احتقار سعى الناس وبخس مشيهم الإيجابي الفعال المثمر في الأرض، من العبث والإفساد الذي يمقته الإسلام، ونهى عنه وهذا في قوله تعالى :﴿ **وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ** ﴾ [**هود** : ٨٥] .

– إن الإسلام مثلما وضع ثوابت ومنطلقات، وقدم قيماً ومبادئ كلية لضبط أدبيات ومقومات التعايش البشري والتعارف الإنساني، فإنه أيضاً وضع ثوابت ومنطلقات وقدم قواعد وأسساً لضبط حركة مصالح الناس وقدم قيماً وأدبيات لإحكام سيولة تبادل المنافع بين المجتمعات، في إطار التعايش والتعارف بينهم، حيث أقام علاقة دقيقة ومتزنة بين حق التملك، وحق الانتفاع، على مستوى الأفراد والمجتمعات وهذا ما يتضمنه قول رسولنا محمد – صلى الله عليه وسلم –: " الناس شركاء في ثلاثة الماء، والكلا، والنار "[1] .

وبعد فإن المسلمين وفق هذا المنهج الرباني العادل ، وموروثه القيمي والتشريعي وفي ضوء قدراتهم المادية والسياسية، ليجدون أنفسهم مؤهلين كل التأهيل لأداء مهمتهم ومساهمتهم الإيجابية الفعالة في معترك التدافع الإنساني البشري.

لإقامة نظام عالمي عادل، ينهي حالة القلق والذعر التي تحيق بالناس، ويصرف أسباب الفساد عن الأرض ويضع حداً لتدهور العلاقات الدولية في أكثر من موقع.

---

(١) البيهقي، السنن الكبرى، ص١٥٠ حديث رقم ١١٦١٣ أرسله سفيان الثوري.
– رواه ابن ماجه رقم ٢٤٧٢ وصححه الألباني و ٢٤٧٣ نحوه.

ويزيل عـوامل الاضطراب والجـشع والاصطراع السـيـاسي والاقتصادي بين الأمم،ويضبط حركة التدافع الإنساني، ويقيم موازين القسط للتعـايش والتعـاون البشري ويرتقي بمنهج التبـادل والتكامل الثقافي، بما يحقق للناس تطلعاتهم لحياة إنسانية آمنة مطمئنة تنعم بالأمن والاستقرار والعدل والسلام.

والمسلمون من أجل هذه ا لمهمة الجليلة النبيلة، على استعداد لكل حوار بناء مع أي جهة معينة وفعالة شعبيّاً ورسميّاً للسير بالإنسانية نحو الخير والفلاح [١].

ونحسب أن هذا البحث يمثل خطوة إيجابية، نتفهم من خلالها مسؤوليتنا أمام ربنا جل شأنه ومن ثم مسؤوليتنا تجاه أجيال الإنسانية الباحثة عن منفذ ومرشد.

وقد لا يخفى على أحد أن الأمة الإسلامية تمتلك رصيداً ضخماً من القيم الهادفة يمكن استثماره فيما يفيد الإنسانية.

---

(١) انظر: الدكتور حامد الرفاعي، الإسلام والنظام العالمي الجديد، ص ١٣٠-١٣١.



المبحث الثاني

حوار الحضارات

بداية يحسن بنا أن نعرض لمفهوم الحوار. ومفهوم الحضارة. حتى نتعرف على حوار الحضارات، وننطلق لرؤية واضحة. تكشف عن ضرورة الحوار للإنسان، وحاجة الإنسان إليه.

والحوار هو: الرجوع عن الشئ، وإلى الشئ، يقال: حار إلى الشئ وعنه حوراً ومحاراً ومحاورة: رجع عنه وإليه. وفي الحديث: " من دعا رجلاً بالكفر وليس كذلك حار عليه " أى رجع إليه ما نسب إليه. والمحاورة، مراجعة المنطق، والكلام فى المخاطبة[١]. قال تعالى (قال له صاحبه وهو يحاوره)، أي وهو يراجعه الكلام ويجادله[٢].

والتحاور: التجاوب. لذلك كان لا مندوحة في الحوار من متكلم ومخاطب، ولابد فيه من مراجعة الكلام وتبادله وتداوله. وغاية الحوار: توليد الأفكار الجديدة في ذهن المتكلم. لا الاقتصار على عرض الأفكار القديمة، وفي هذا التجاوب توضيح للمعاني، وإغناء للمفاهيم يفيضان إلى تقدم الفكر[٣].

وإذا كان الحوار تجاوباً بين الأضداد كالمجرد والمشخص، والمعقول والمحسوس. سمى جدلاً. والجدل هو النقاش والخصومة. وهو منطقياً:

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، جـ ١ ص ٧٥٠، ط دار لسان العرب، بيروت.

(٢) سعيد حوى: الأساس في التفسير، جـ ٦، ص ٣١٨٤، ط: دار السلام، القاهرة، سنة ١٤٠٥هـ

(٣) انظر حسين حماده: الحوار القرآنى، مجلة المعارك ج، المجلد الأول، ع ٨، ص٣٦، بيروت، سنة ١٤١٢هـ.

قياس مؤلف من مقدمات البرهان[١] .

والجدل أصلاً هو فن الحوار والمناقشة. قال أفلاطون: " الجدلي هو الذي يحسن السؤال والجواب، وغايته الارتقاء من تصور إلى تصور، ومن قول إلى قول للوصول إلى أعم التصورات، وأعلى المبادئ" .

واقتبس المحدثون عن أفلاطون. فأطلقوا الجدل على الارتقاء من المدركات الحسية إلى المعاني العقلية، ومن المعاني الشخصية إلى الحقائق المجردة، ومن الأمور الجزئية إلى الأمور الكلية.

وقبل أفلاطون زعم سقراط: أن العلم لا يعلم، ولا يدون في الكتب. بل يكشف بطرق الحوار[٢] . ويذكر العلماء: أن قاعدة القواعد في النظام الكوني هى حوار الكائنات. وإن جامدة ليأخذ بعضها من بعض، ويعطى بعضها البعض. كما هى طبيعة الحاجة، فيكون الانسجام والشد والعقد والاستمرار.

فالحوار ليس قصراً على الكلمات اللسانية المسموعة، إنما قد يتجاوز إلى الإشارة الموضحة، والبسمة المشرقة، والحس الخافق، والعمل الصالح، والموقف الصالح حتى السمت لا يبعد أحياناً أن يتأتى حواراً.

ومن البداهة القول: بأن الإنسان كائن عقل واجتماع. كائن علاقة وحاجة، ومن البداهة القول: أن هذه الأحوال أحوج حاجاتها:

---

(١) المصدر السابق، ع٨، ص٣٦ .

(٢) المصدر السابق، ع٨، ص٣٧ بتصرف واختصار .

اللقاءات المتحاورة. ليكون المجتمع على بينة من أمر علاقاته، وعلى تناسق مؤتلف، وتفاهم واع، وترابط معقود.[1] .. وهذا هو أصل مفهوم الحوار.

أما الحضارة؛ فإنها مأخوذة من الحضر، والحضر خلاف البدو؛ والحاضر خلاف البادى وفى الحديث: " لا يبع حاضر لباد " والحاضر المقيم في المدن والقرى، والبادى المقيم بالبادية. ويقال: فلان من أهل الحاضرة، وفلان من أهل البادية، والحضارة - بكسر الحاء - الإقامة فى الحضر. وكان الأصمعي يقول: بالفتح قال القطامى:

فمن تكن الحضارة أعجبته .. فأيّ رجال بادية ترانا

والحضر، والحاضرة؛ خلاف البادية. وهى المدن والقرى والريف. سميت بذلك. لأن أهلها حضروا الأمصار، ومساكن الديار التى يكون لهم بها قرار[2]. إذن أهل الحضر يوصفون بأنهم أهل القرار كما يقال: قراري للحضري الذي لا يتنجع ولايتنقل طلباً للكلأ في مواضعه. كذلك يوصف أهل الحضر بأنهم " أهل المدر " وهو قطع الطين المتماسك. أو أهل الحجر لأنهم يسكنون بيوتاً متينة ثابتة، خلافا لأهل الوبر، الذين يسكنون الخيام، من وبر الإبل، أو صوف الغنم، أو شعر الماعز[3].

ومفهوم كلمة " الحضارة " مفهوم تطور مع الزمن لاسيما في

---

(١) المصدر السابق، س ٣٧.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، الجزء الأول، ص ٦٥٨.

(٣) د.محمد فتحى عثمان: القيم الحضارية في رسالة الإسلام، ص٩: دار السعودية ١٤٠٢هـ.

تاريخ الحياة العربية. ولقد عرف العرب الفارق بين حياة البادية وحياة الحضر، منذ كانت بادية ومنذ كان حضر. ولكن أول من تصدى لهذا التمييز على أساس الدراسة الواعية هو العلامة عبدالرحمن بن خلدون[1].

ويرى: أن الحضارة هى النمط من الحياة المستقرة والذى يناقض البداوة، ويضفي على حياة أصحابه فنوناً منتظمة من العيش والعمل والاجتماع والعلم والصناعة، وإدارة شؤون الحياة والحكم، وترتيب وسائل الدعة وأسباب الرفاهية.[2]

والحضارة في فكر ابن خلدون " طور طبيعي أو جيل من أجيال طبيعية في حياة المجتمعات المختلفة وأنها غاية العمران.[3]

ويقول: " إن الحضارة في الأمصار من قبل الدول، وأنها ترسخ باتصال الدول ورسوخها. إنها أحوال زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه، وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوت غير منحصر، ويقع فيها عند كثرة التفنن في أنواعها وأصنافها، فتكون بمنزلة الصنائع ويحتاج كل لنصف منها إلى القوامة عليه والمهرة عليه"[4]

والباحث: يجد أن مفهوم الحضارة في العصور المتأخرة قد أمتد

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، جـ ١،ص ٢١٠- ٢٣، ط: دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٦٧م.

(٢) الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح: أضواء على الحضارة الإسلامية، ص١٧ ط: دار اللواء بالرياض، ١٤٠١هـ.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، جـ١ ص٦٥٦- ٦٥٧.

(٤) المصدر السابق ج ١ ص ٦٥٦ .

إلى ألوان من المعنى هي أبعد وأوسع مما رآه ابن خلدون في عصره، وفي البيئة العربية، وفي مفهومه العام والحديث المعاصر بصفة خاصة. قد أصبح أكثر اتساعاً مما يدل عليه اللفظ في مفهومه اللغوي التقليدي.

ولذا جاء في المعاجم الحديثة: أن الحضارة هي الرقي العلمي، والفني، والأدبي والاجتماعي، والاقتصادي في الحضر.

وبعبارة أخرى أكثر شمولاً هي: الحصيلة الشاملة للمدنيّة والثقافة والفكر، ومجموع الحياة في أنماطها المادية والمعنوية.

ولهذا كانت الحضارة هي الخطة العريضة ـ كمّاً وكيفاً ـ التي يسير فيها تاريخ أمة من الأمم. ومنها الحضارات القديمة والحضارات الحديثة والمعاصرة، ومنها الأطوار الحضارية الكبرى التي تصور انتقال الإنسان أو الجماعات من مرحلة إلى مرحلة[١].

فالحضارة بكل بساطة، معناها: بذل المجهود بوصفنا كائنات إنسانية من أجل تكميل النوع الإنساني، وتحقيق التقدم من أي نوع كان في أحوال الإنسانية وأحوال العالم الواقعي.

إن الحضارة تنشأ حينما يستلهم الناس عزماً واضحاً صادقاً على بلوغ التقدم ويكرسون أنفسهم تبعاً لذلك لخدمة الحياة وخدمة العالم[٢].

---

(١) انظر الدكتور أحمد السايح: أضواء على الحضارة الإسلامية، ص١٨.

(٢) البرت اشفيشر: فلسفة الحضارة، ترجمه عن الألمانية: الدكتور عبد الرحمن بدوي ص٥ ط: دار الأندلس، بيروت.

والحضارة باختصار شديد: هي جملة المظاهر المعنوية التي يخلفها التاريخ والتي تبقى في المجتمع على مر الأيام دليلاً على القدرات الذهنية المميزة، وتعبيراً عن روح هذا المجتمع والشعب الذي يمثله.

ولاشك أن المظاهر المعنوية تأخذ قوالب مادية مختلفة تتجسم فيها تلك المعنويات، وتشكل المظاهر المعنوية في صور مختلفة كالفنون، والآداب، والعلوم والمعارف، ومجموع ما ينتج عن ذلك كله من تسجيلات ومشاهد في الآثار والعمائر وأسلوب الحياة، وآداب المعاش القومي[1].

لقد عرف العلماء الحضارة تعاريف متباينة، وتحدثوا عنها من وجهات نظر مختلفة. ولما كانت الحضارة إنسانية النشأة؛ كان علينا أن نختار من تعريفات الحضارة المتعددة تعريفاً ذكره العلامة الفرنسي " جورج باستيد" جاء فيه: أن الحضارة هي التدخل الإنساني الإيجابي لمواجهة ضرورات الطبيعة، تجاوباً مع إرادة التحرر فى الإنسان، وتحقيقاً لمزيد من اليسر فى إرضاء حاجاته ورغباته، وانقاصاً للعناء البشري[2].

فالسلوك الإنساني الذى ينتج الحضارة هو استجابة لتحد من ظروف الطبيعة يكون هو المثير والدافع والحافز للإنسان. كي يتغلب على ما يواجهه، ومن ذلك عوامل فى طبيعة الإنسان نفسها. مثل حاجاته للطعام، والشراب والدفء، والاستقرار، والأمن؛ وهناك

---

(١) المصدر السابق، ص١٨.

(٢) جورج باستيد: كتاب المدينة، ترجمة: عادل العوا، ص١٢، ط: دمشق.

منافسة الإنسان الآخر له على ذلك؛ ثم ما يكون من قصور ظروف بيئته المادية عن تلبية هذه الحاجات[1].

فالحضارة تحقيق للراحة الإنسانية في جوانبها المتعددة، المتقابلة المتكاملة جسدية، وعقلية، ونفسية، وروحية؛ والسلوك الحضاري هو: جواب الإنسان على التحدي الموجه له؛ تحدى الطبيعة المادية من جهة؛ وتحدى حاجاته هو من جهة أخرى، وتحدى الإنسان الآخر أو المجتمع من جهة ثالثة؛ ويأتي هذا الجواب الإنساني على التحدي فى صور نشاط متعدد الجوانب؛ كما تشمل أيضاً صور الإنتاج المادي من عمائر وطرق وجسور وقناطر وغيرها.

ومن مجالات الحضارة: العقائد، والعوائد، والأدب الشعبي، وأدب الخاصة أوالأدب الرفيع، والنظم السياسية، والإدارية، والاقتصادية، والاجتماعية. كما لا يخرج عنها تخطيط المدن والعمارة ووسائل النقل، وأساليب المأكل والمشرب والزينة والترفيه[2].

والحضارة على أي حال تمثل كل مظهر من مظاهر الإنتاج البشرى. غالباً ما يحدوها سلوك الإنسان وطرق معيشته وتفاعله مع البيئة. ولذا كان من الطبيعة أن تختلف كل حضارة في مظاهرها عن الحضارات الأخرى، فلكل حضارة من الحضارات قديمها وحديثها مظاهر مميزة[3].

---

(١) انظر المصدر السابق، ص١١٧، والدكتور محمد فتحي عثمان: القيم الحضارية في رسالة الإسلام، ص١٦.

(٢) انظر الدكتور محمد فتحي عثمان: القيم الحضارية في رسالة الإسلام، ص١٧.

(٣) انظر الدكتور محمد المحاسن عصفور: معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، ص٢، ط: دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩م.

والعقل البشري استطاع بما اكتسب من خبرة، ودراية، ومرانة، أن يصنف المعارف الإنسانية، وأن يحكم ما بينها من وشائج، وأن يستفيد بما بينها من صلات وروابط. وقد يكون معلوما أن النتائج العلمية متصل بعضها ببعض، ويعتمد بعضها على بعض. والحضارات الإنسانية ليست ملكاً لأمة بعينها، ولا هي وقف على جماعة من الناس.

لأنها صرح هائل قد أسهمت فيه كل أمة بنصيب. والحضارات الإنسانية قد تتشابه في مظاهرها، وفي عناصرها، وفي أسلوبها، ولاسيما إذا تعايشت في جهات متقاربة.

والحضارات الإنسانية سلسلة محكمة متينة الحلقات يؤثر سابقها في لاحقها؛ ويتأثر بماضيها وحاضرها وينتفع بعضها من بعض[١].

ولقد تواجدت حضارات مختلفة في الزمان والمكان، وانتفعت من بعضها انتفاعاً أدى إلى تقدمها عند الكثير.

وتشكل الحضارة مجموع الصفات والمزايا المشتركة لمجتمع، أو لمجموعة من المجتمعات، وهي تتجاوز الثقافة. وهذه الصفات تمثل مجموع الحلول التى أوجدها أو تبنتها مجموعة اجتماعية ما، تندمج بشكل عام، في جو واسع جداً، ومكان جغرافي طويل جداً من التاريخ.

وتستخدم هذه الأساليب المادية، والتقنية، والمفاهيم. لحل

---

(١) انظر الدكتور أحمد السايح: أضواء على الحضارة الإسلامية، ص١٨.

جميع المشكلات التي يطرحها وجود هذه المجموعة: الاتصالات، وإصلاح وتوزيع الأراضى، واستثمار الثروات، وكذلك الحياة الاقتصادية، والفكرية، والسياسية، والدينية.

وكل المجموعات البشرية تعمر صدورها الرغبة بالحياة والخلود. وهذا العامل عنصر غير مادي، وهو ضروري لكل حضارة، لكي تولد، وتحيا، وتتطور. وجميع العناصر المكونة للحضارة متفاعلة فيما بينها باستمرار، وتتطور بوتائر متفاوتة بين السرعة والبطء.

وإن أول ما يسترعى انتباه المراقب الذى ينظر للحضارة من الخارج، هو صفاتها الجمالية. وإدراكها للجمال بشكل عام والأساليب الفنية المعبرة عنه. ولايخفى أن الحوار الحضاري يتم من أجل الصفات الجمالية في الحضارة.

وتعتبر المنشآت المادية، والأدوات والتماثيل والكتابات، ذات أهمية خاصة بالنسبة لمفاهيم الجمال فى كل حضارة. ويأتي بعد علم الجمال ما له علاقة بالحياة المادية كفن الطبخ، وطريقة التغذية، وصناعة الفخار،والأواني، والأدوات المنزلية والمفروشات، والمنشآت والأدوات والآلات والأسلحة، حيث يتم الجمع بين الفائدة المباشرة، والصفة الجمالية.

والفاحص المدقق: يجد أن تيار الفكر الحضاري الإنساني، يتخذ طابعاً واحداً. لا ينحو كثيراً عن تاريخ الإنسان نفسه. فالحضارات والثقافات المختلفة، تتفاعل مع بعضها فتنتج للإنسان ما يشبع حاجته الفكرية والمادية.. وبذا فإن الحضارات الإنسانية على مر

العصور، تكون كلاً متماسكاً يترابط بنيانه العضوي كحلقات السلسلة الواحدة. التي لا تنفصم الواحدة عن الأخرى.

ولا يمكن أن تكون كل حضارة نشأت بمعزل عن غيرها من الحضارات الأخرى أو أنها لم تتفاعل معها. ونظرتنا الأساسية تقوم على أن الحضارات تأخذ وتعطي. تأخذ ما يتفق مع طبيعة البنيان العقلي والفكري للأمة. وتعطي ما تجود به نوعيتها ونشاطها الفعال. وبطبيعة الحال. فإن هذا التفسير أقرب إلى فهم روح الفكر والنشاط الإنساني المتصل الذى بدأ تاريخه ومسيرته مع بداية الإنسان على هذه الأرض[1].

ولا يخفى أن النشاط العقلى، والإنتاج الحضاري، لابد وأن يستند إلى أدلة ملموسة، والأدلة في هذه الحالة إما مادية مثل: النقوش والمعابد والآثار والمنشآت، وكل شكل الإنتاج التكنولوجي. وإما فكرية مثل: الوثائق، والمؤلفات، والكتب، والنظريات العلمية، والآراء المدونة كتابة.

أما فيما يتصل بالأدلة المادية، فإنها ميدان اهتمام التاريخ وباحثيه، وعلماء الآثار ودارسيها. فدراسة هؤلاء تفسر الحضارة الإنسانية بالأدلة المادية التي تميز حضارة من الحضارات عن غيرها. على حين أن الفلاسفة ومؤرخي العلم يهتمون بصورة أساسية بالنشاط الفكري، والنظريات والآراء وتطور الأفكار التى يقومون على تحليلها ونقدها ومحاولة تفسيرها من خلال عملية التركيب المنطقي

---

(١) الدكتور ماهر عبدالقادر محمد: المشكاة، ص١٦٦، ط: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥م.

للوقوف على الفلسفة الكامنة في باطن الفكرة نفسها.

الإسلام والحضارة

إن الإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه خليفة في الأرض.

قال تعالى: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ [**البقرة**: ٣٠].

وقد فضل الله الإنسان وكرمه، كما وضح ذلك فى قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾ [**الإسراء**: ٧٠].

وهذه الكرامة التي اختص الله بها الإنسان ذات أبعاد مختلفة، فهي حماية إلهيّة للإنسان تنطوي على احترام حريته، وعقله، وفكره، وإرادته.

وهذه الكرامة تعني فى النهاية الحرية الحقيقية، وهي تلك الحرية الواعية المسؤولة التي تدرك أهمية تحملها أمانة التكليف والمسؤولية التي أشار إليها القرآن في قوله تعالى:

﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ**﴾ [**الأحزاب**: ٧٢].

وإذا كان الله قد اختص الإنسان بالتكريم، وجعله مكلفاً ومسؤولاً فإنه من ناحية أخرى. قد خلق الله له هذا الكون بما فيه ليمارس نشاطاته المادية والروحية على السواء.

يقول الله تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [**الجاثية**: ١٣].

والتفكير الذي تنص عليه الآية هنا أمر جوهري لا ينبغي أن يغيب عن الأذهان(١).

فإنه إذا كان الله قد سخر للإنسان هذا الكون، فلا يجوز له أن يقف منه موقفاً لامبالاة فيه بل ينبغي عليه أن يتخذ لنفسه منه موقفاً إيجابياً، وإيجابيته تتمثل في درسه والنظر فيه للاستفادة منه بما يعود على البشرية بالخير.

والاستفادة من كل هذه المسخرات في هذا الكون، لا تكون إلا بالعلم والدراسة والفهم.

والنظر في ملكوت السموات والأرض على هذا النحو. سيؤدي إلى الرقي المادى وفي الوقت نفسه إلى الرقي الروحي(٢) والحضاري.

والحضارة الإسلامية هي عمارة الأرض، وترقية الحياة على ظهرها: إنسانياً، وخلقياً، وعملياً، وأدبياً، واجتماعياً، وفق منهج الله وشريعته.

وبناء على هذا المفهوم فإن المجتمع الإسلامي. وهو المجتمع الذي يلتزم بالقيم في كل جوانب الحياة. هو وحده المجتمع المتحضر(٣). والمجتمع المتحضر هو الذي تكون القيم الإنسانية، والأخلاق الإنسانية التي تقوم عليها هي السائدة فيه. وهذه القيم هي التي تنمي خصائص

---

(١) الدكتور محمود حمدي زقزوق: " دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفي " ص ٩، ط: مكتبة وهبه بالقاهرة.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الدكتور على أحمد مدكور: الثقافة والحضارة في التصور الإسلامي " مجلة الدارة، ع٤ ص٥٢، السنة ١٤، السعودية ١٤٠٩هـ.

إنسانية الإنسان، وهي التي تميزه عن غيره من المخلوقات[1].

وهذه القيم إنما هي قيم إنسانية ذات ميزان ثابت. وهي مقررة فى الشريعة الإسلامية منذ جاءت، وما على الإنسان إلا أن يمضي في بنائها وصيانتها في كل المجتمعات التي يقيمها حضرية كانت أم بدوية؛ صناعية كانت أم زراعية.

فالمهم في كل الأحوال هو الارتقاء صعداً بالخصائص الإنسانية وحراستها من النكسة إلى الحيوانية التى تؤدي إلى التخلف.

إن الحضارة الإسلامية تقوم بهذه القيم، وبهذه الأخلاق، في كل مكان، وفي كل بيئة. أما أشكالها وصورها المادية، فهي كثيرة، ومتنوعة. لأنها في كل بيئة تستخدم المقدرات والمعطيات الموجودة بها فعلاً، وتنميها وفقاً لميزان الله الثابت، وقيم الإنسان المقررة في شريعة الله[2].

فالإسلام حين يدخل المجتمعات البدائية. ينشئ الحضارة المناسبة لهذا المجتمع، وحين يدخل المجتمعات المتقدمة صناعيّاً أو زراعيّاً أو غير ذلك. فإنه يستخدم كل ما لديها من معطيات، ويقيم حضارة هذه المجتمعات مستفيداً مما لديها.

وإذا كان هذا هو مفهوم الحضارة الإسلامية. فإن التخلف الحقيقي في مفهوم المجتمع الإسلامي المتحضر. هو تحويل منجزات العلم الهائلة إلى قوى باغية للتدمير والتسلط، وتسخير إمكانات العلم

---

(١) سيد قطب: " معالم في الطريق " ص ١٣١-١٣٣.

(٢) سيد قطب: " معالم في الطريق، ص ١٣١.

غير المحدودة. في نشر الفوضى، والعادات غير الخلقية. ولا بد من استخدامها فى إعلاء القيم الإنسانية، وفي خدمة الإنسان. دون بغي، أو ظلم أو تحكم، أو إبادة قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ**﴾ [**إبراهيم**: ٢٨].

إن مهمة العلم في مفهوم المجتمع المتحضر ليست قهر الطبيعة، أو الانتصار عليها. بل التلطف مع الطبيعة، والجد في اكتشاف قوانين الله فيها[١].

وإذا كان هذا هو عمل الإسلام حينما ينشئ حضارة. فإن هذه الحضارة التى دعا إليها الإسلام تتميز بأنها منفتحة الحدود الفكرية، والنفسية، والمادية والنصوص الإسلامية التي تعلن هذه الحقائق كثيرة:

عن أبى هريرة. رضي الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: " ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة "[٢].

وعن أبي هريرة. رضي الله عنه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة الا من صدقه جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له "[٣].

وعن ابن مسعود. قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: " لاحَسَدَ إلا فى اثنتين رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته في

---

(١) الدكتور علي احمد مدور: " الثقافة والحضارة في التصور الإسلامي " مجلة الدارة " عدد ٤، ص٩٩، ١٤٠.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم، كتاب الوصية. باب ما يلحق الإنسان بعد وفاته حديث رقم ١٦٣١.

الحق. ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها[1] ".

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم -: " الحكمة: الإصابة في غير النبوة[2]"

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم -: " الكلمة الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها[3] "

ولا يخفى: أن الباحث الذى يسير أغوار المواريث الفكرية لهذه الأمم ويتتبع خيوط هذا التمايز الحضاري يجد أنها تضرب بجذورها في أعماق التاريخ. حيث كان البابليون، والآشوريون، والفينيقيون، والمصريون، وغيرهم ممن أسهموا في الفكر الإنساني وكان لهم تمايز حضاري[4].

ولعل نظرة فاحصة إلى الأمم مثل: فارس، والصين، والهند، واليابان.. ستفضى بالباحثين إلى الاجتماع، على حقيقة تميز الشخصيات القومية، والمواريث الحضارية، وطريق العيش، والفلسفة، والحياة، وفى النظرة للكون وتصوره لدى شعوب وأمم هذه الحضارة.

وكذلك الحال إذا نحن تأملنا الحضارة الغربية منذ اليونان وحتى نهضتها الحديثة، والحضارة الإسلامية منذ تبلورها كثمرة لاندماج المواريث القديمة للشعوب التي دخلت الإسلام. بعد الإحياء لهذه

---

(١) رواه البخاري. كتاب العلم. باب الاعتبار بالعلم حديث رقم ٧٣ ومسلم حديث ١٨٩٣.

(٢) رواه البخارى.

(٣) رواه الترمذى رقم ٢٦٨٧ وابن ماجة وقال الألباني: ضعيف جداً.

(٤) راجع الدكتور أحمد السايح: " أضواء على الحضارة الإسلامية " ص٧٨، ط دار اللواء بالرياض ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

المواريث. كثمرة لاندماج هذه المواريث في الفكر الإسلامي الذى استصفاها وطورها وفقاً لمعاييره[1].

حيث لم يكن المسلمون مجرد نقلة. ولكن إضافاتهم للأصول التى نقلوا عنها تشهد بأنهم زادوا، وابتكروا لأنهم كانوا ينظرون بعين إلى الحضارات التي أخذوا عنها، وبالعين الأخرى إلى التعاليم الإسلامية[2].

إذن " لابد من التصور الذي يقوم على أن الفكر. إذا نظرنا إليه على المستوى العالمي الإنساني. وجدنا فى هذا الفكر: " ما هو مشترك إنساني عام " لايختص بحضارة بذاتها. وفي هذا الفكر أيضاً ما يتميز بالخصوصية والاختصاص.

والتميز في الفكر بين ما هو مشترك إنساني، وبين ما خصوصيته حضارية، فإنما تحكمه وتحدده معايير موضوعية.

فكل العلوم التي تكون الطبيعة موضوعها، وظواهرها المادة وخصائصها، هي من قبيل الفكر الذي هو مشترك إنساني عام. وذلك لأن مناهجها تتميز بالحياد العلمي.

ولأن التجربة الملموسة بالحواس المادية. هي السبيل لاكتشاف حقائق هذه العلوم. تلك الحقائق التي هي بنت الدليل، والتي لا تختلف باختلاف مذاهب وعقائد وأجناس وفلسفات المكتشفين.

---

(١) انظر الدكتور محمد عمارة: " الغزو الفكري وهم أم حقيقة " ص ٩ بتصرف.

(٢) انظر الدكتور توفيق الطويل: " الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية " ص ١٥١، ط: مكتبة التراث الإسلامي، مصر ١٩٩٠م.

ومن ثم فهي لاتتغاير بتغاير القوميات والحضارات بل هي واحدة على المستوى الإنساني، كما أن موضوعاتها المادة، وظواهرها واحدة هي الأخرى لا تختلف ولاتتغاير باختلاف وتغاير الحضارات.

فعلوم مثل الرياضيات بفروعها، ومثل الكيمياء، والطبيعة، والطب، والجيولوجيا لم ولن تختلف مناهجها، وحقائقها، وقوانينها باختلاف الحضارات. وقد تتمايز وظائف استخدام قوانينها ونظرياتها ومكتشفاتها لكن حقائق علومها. أي فكرها العلمى سيظل واحداً مهما اختلفت المذاهب والعقائد والحضارات[1].

ويلحق بهذه المنظومة. من حقائق العلوم الطبيعية الخاصة بدراسة المادة وظواهرها وأسرارها على نحو ما، وإلى حد كبير.. العديد من ثمرات التجارب الإنسانية فى الوسائل، والنظم، والمؤسسات، والخبرات. التي ترشد أداء الإنسان وهو يسعى إلى تحقيق المقاصد والغايات.

فعلى الرغم من تمايز المقاصد والغايات والمثل. فإن تجارب الإنسانية فى الوسائل والنظم والمؤسسات قد تكون صالحة في أحيان كثيرة للاقتباس. مع التطويع والتمثيل، والاستلهام.

إن العناصر الخارجية ضرورة حتمية. لا تستغني عنها حضارة مهما سمت وارتفعت. إنها تمتزج لتكون وإياها صيغة جوهرية تختلف من تراث إلى آخر. وهذه العناصر الخارجية تأتي بطريق الاقتباس الإرادي المباشر المقصود. والاقتباس والنقل عملة متداولة بين

---

(١) انظر الدكتور محمد عمارة: " الغزو الفكري وهم أم حقيقة " ص ١٦.

الشعوب قاطبة. فكل حضارة أبدعت، ونقلت، وأخذت، وأعطت. ولم توجد قط حضارة أبدعت ولم تنقل. فالنقل ليس وباء. وإنما هو غذاء، والاستعارة ليست عاراً وإنما هي فخار.

فالتأثيرات الحضارية والاستعارات الثقافية، والأفكار، والآراء، والنظريات المتبادلة بين الأمم والشعوب. إنما هي ظاهرة صحية طبيعية سليمة، لا خطر فيها وخوف منها(١).

والعرب هم وارثو الحضارات القديمة. إذ لم يكونوا قبل الإسلام معزولين عن جيرانهم أصحاب الثقافات العريقة عزلة كاملة. فقد انفردت الصحراء العربية بين صحارى العالم أجمع بأنها أحيطت منذ القدم بأرقي حضارات العالم.

ففي الشمال ازدهرت حضارة ما بين النهرين وحضارات الإغريق والكنعانيين والآراميين وجزر بحر إيجه.

وفي الغرب ازدهرت حضارة المصريين القدماء، وفي الشرق كانت الحضارة الفارسية، ومن ورائها الحضارات الآسيوية الأخرى، وفي الجنوب كانت حضارة اليمن.

وكانت القوافل العربية دائبة الحركة بين مراكز هذه الحضارات عند أطراف الصحراء تنقل البضائع، والسلع، وكان لابد أن تتحرك المعارف والثقافات مع السلع والبضائع، وأن تختلط هذه الثقافات، وتتزاوج فى حركة بطيئة، ولكنها ثابتة مستمرة، وأن يؤدي كل ذلك إلى تصفية

---

(١) انظر الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا: " أصالة الفكر العربي " ص ١٥٢، ط: عويرات ١٩٨٢م بيروت، فرنسا.

الأفكار والمعارف وتقدمها تبعاً لهذا الاختلاط والتزاوج[1].

في هذا الجو جاء الإسلام. إنه لم ينتشر فى فراغ، فالأمم التي صادفها أو اتصل بها في حركة المد الكبيرة، أو تلك التى اعتنقته، ودانت به. أمم عرفت حضارات شتى، وثقافات متنوعة، ومرت بتجارب روحية وخبرات مادية متعددة

وكان اختلاط العرب بهذه الأمم اختلاط قتال وحروب، ومعارك أولاً، ثم اختلاط حضارة وثقافة وأفكار بعد ذلك. ومن هنا كان التأثير والتأثر. ومن هنا كان التفاعل والإخصاب، وكان الأخذ والعطاء وتبادل الأفكار والآراء.

وبذلك فقد عرف العرب حضارة الهند، وحكمة فارس، وفلسفة اليونان، واختلط المسلمون بأقوام تنوعت عقائدهم، وتشعبت آراؤهم، وصادفوا مئات المفكرين والباحثين والمثقفين، واتصلوا بأصناف من الأفراد والجماعات لا تدخل تحت حصر، وشاع التزاوج والمصاهرة، وتفاعلت العادات والتقاليد والآراء والأفكار والمذاهب والمواقف والعلاقات.

وجاءت دعوة الإسلام لتعطي هذا التفاعل صيغة فريدة. ونتج عن ذلك كله مزاج فكري واجتماعي وروحي جديد أعطى الحضارة الإسلامية معناها ومبناها[2].

وكلما ذهبنا نبحث في حضارات الأمم وجدنا: أن اللقاء

---

(١) المصدر السابق، ص ١٦٤.

(٢) انظر الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا، أصالة الفكر العربي، ص ١٦٤.

والتفاعل الحضاري الذي عرفه التاريخ بين الحضارات العريقة المالكة لما هو: " مشترك " ولما هو خاص قد تم وفق أن هناك ما هو مشترك إنساني عام " وهناك ما هو خاص.

فالتقاء الحضارات ـ وهو معلم من معالم التاريخ الحضاري للإنسانية وتفاعل هذه الحضارات عندما تلتقي ـ هو قدر لاسبيل إلى مغالبته أو تجنبه. لكنه تم دائماً وأبداً وفق هذا القانون الحاكم: التمييز بين ما هو مشترك إنساني عام تفتح له الأبواب والنوافذ بل ويطلبه العقلاء، ويجدون السعي في تحصيله وبين ما هو خصوصية حضارية يدققون في حذر. قبل استلهامه وتمثله، ويعرضونه على معايير حضارتهم لفرز ما يقبل منه ويتمثل من الذي يرفضونه. لما فيه من تناقض مع هويتهم الحضارية وقيمهم الاعتقادية[1].

لقاء الإسلام بحضارات الأمم

ويستطيع الباحث فى الحضارات، أن يضرب مثالين على تفاعل الحضارات والتقائها فى أخذ وعطاء. وفق " ما هو مشترك إنساني عام"، وما هو " خصوصية حضارية".

المثال الأول: لقاء الحضارة الإسلامية بالحضارة الفارسية، والهندية، واليونانية.

المثال الثاني: لقاء الحضارة الغربية إبان نهضتها بالحضارة الإسلامية.

أما المثال الأول فهو يقوم على لقاء الحضارة الإسلامية وتفاعلها

---

(١) الدكتور محمد عمارة: " الغزو الفكري، وهم أم حقيقة " ص ٢٠٥ بتصرف، ط: الأزهر ١٩٨٨م.

مع الحضارة الفارسية، واليونانية، والهندية، فإن المدرك لأبعاد هذا اللقاء والتفاعل، يلحظ بوضوح: أن المسلمين لم يكونوا يومئذ أخلاء من أي تفتح عقلي، إذ كانت نواة التفكير فيهم قد تكونت، كما كانت بين أيديهم نظرية كونية شاملة أمدهم بها القرآن، فكانت بمثابة العمود الفقري لكل تفكير عقلي، وتحرك عملي وعلمي.

ولهذا أقبل المسلمون على حضارات الأمم يمتصون بسرعة فائقة ما خلفه الفرس من حكم وآداب وخبرات سياسية، وما خلفه اليونان الإغريق من علوم فلسفية وعقلية، وما كان لدى مختلف الأمم التي التقت مع المسلمين، لقاء مودة، أو لقاء خصام.

لقد قام المسلمون بتحرير هذه العلوم، وتنقيتها من الشوائب، وتطويرها وتنميتها، وصقلها، وإصلاح فاسدها، مسترشدين بالمنهج العلمي العام، الذى رسمه للمسلمين مصدرا للتشريع الإسلامي العظيمان: القرآن والسنة.. كل ذلك فيما لم يكن من خصائص الشريعة الإسلامية بيانه، وتحديد أصوله وفروعه، كأصول الاعتقاد، وأحكام العبادات، وأحكام المعاملات، ونظم الحياة الفردية والاجتماعية التي رسم الإسلام للناس طريقها، وأوضح لهم الصراط المستقيم[1].

إن الدولة الإسلامية الجديدة التي عملت على نشر الإسلام في الممالك المختلفة والتقت بحضارات الأمم. لم تأخذ من الحضارات إلا

(١) عبدالرحمن حبنكة الميداني: أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها، ص١٢٢، ط: دار القلم، دمشق، بيروت ١٤٠٠هـ.

لكي تعطى.. إنها لم تقبل التراث الفكري اليوناني وغير اليوناني، إلا لكي تهضمه بعقليتها الجديدة، وتمثله بمنطق تفكيرها، وروح عقيدتها، وبكل أصالة تاريخها وخصبه، وترده بعد ذلك أضعافاً مضاعفة.

فقد أقبل المسلمون على علوم اليونان، والهنود، وأصحاب الحضارات القديمة. يغترفون منها ما كان فى وسعهم أن يغترفوا، لكن تلك العناصر التي التهموها قد تحولت على أيديهم لتكون غذاء جديداً[1].

إن العلماء المسلمين وهم يستوعبون نتاج الحضارات القديمة والمذاهب والأفكار ويستعينون بها فى عملية البناء، كان رائدهم فى ذلك البحث عن الحقيقة لذاتها، و" الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها ".

لقد أخذ المسلمون ما أخذوا لأنهم طلاب حقيقة وهذا حسبهم، إنهم لم يقدموا على النقل والاقتباس للتجمل والزينة، وليباهوا الناس بكثرة الأحجار الكريمة، والأساور والعقود والخلاخيل، بل لبناء الذات، واستدراك ما فات، واستكمال أسباب الحياة.

لقد كان المسلمون ينظرون في كل شيء، ويبحثون في كل فج، ويستفيدون بكل حديث وقديم، ينقبون عن كل علم، ويسيرون وراء كل حكمة، ويأخذون العبرة من الماضي، وينطلقون للمستقبل، يستفيدون من القديم، ويبنون الجديد.

---

(١) الدكتور محمد عبدالرحمن مرحبا: أصالة الفكر العربى، ص ١٦٧.

وكانت لهم جولات وجولات في كل ناحية من نواحي الحياة في العلم، وفي الحكمة، وفي الأخلاق، وفي الفلسفة، وفي الطب، وفي الهندسة، وفي الجغرافيا، وفي الفلك، وفي الصناعة، وفي الكيمياء، وفي الصيدلة، وفي الزراعة، وفي التاريخ، وفي القصص، وفي اللغة، وفي الحيوان، وفي الفيزياء، وفي الأحجار، وفي البحار، والمعادن[١].

ولم يدخر المسلمون جهداً في البحث عن تراث الأمم السابقة، واضطلع المسلمون رغم ما عانوه من جهد بالتعرف على الثقافة اليونانية القديمة، والفارسية والهندية وغيرها من الثقافات التي نما إلى علمهم أنها موجودة فى أي صقع أو قطر[٢].

لقد امتصت العقلية الإسلامية الغذاء الذي قدمه ميراث العالم القديم الضخم بعد أن أصبح متوفراً باللغة العربية، فأدى ذلك إلى قيام مدارس الفلسفة، والعلوم، والفنون المختلفة، التى سيطرت على أفق الحضارة الإسلامية. نتيجة لتطبيق مبادئ الإسلام على أشكال المعرفة المختلفة، التي ورثها المسلمون عن الشعوب، ذات الحضارات العريقة[٣].

لقاء الإسلام بالحضارة الفارسية:

وليس هناك شك فى أن الفتح الإسلامي للإمبراطورية الفارسية، ودخول الفرس بمواريثهم الحضارية الغنية في إطار الدولة الإسلامية قد

---

(١) انظر: الدكتور توفيق الراعى: الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٣٨٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٩.

(٣) الدكتور محمد عبدالرحمن مرحبا: أصالة الفكر العربى، ص ٢٢١

أتاح أوسع الفرص لتفاعل حضاري واسع وعميق وخلاق بين الحضارة الفارسية وبين الفكر الإسلامي [1].

لكن الراصد لهذا التفاعل بين الفكر الإسلامي إبان تبلور حضارته وبين الميراث الفارسي يستطيع أن يميز بين ما " قُبل " : وبين ما " رفض " من هذا الميراث.

لقد فتحت فارس على عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وكذلك فتحت الأودية الزراعية للأنهار الكبرى في الدولة الإسلامية: النيل، ودجلة، والفرات. ولم يتردد عمر بن الخطاب في تبني النظام الفارسي في ضريبة الأرض الزراعية والذي كان يسمى " وضائع كسرى " وظل سائداً ومعمولاً به حتى في ظل الدولة العباسية.

فأنت ترى أنه في عهد عمر بن الخطاب، تم استلهام خبرة وتجربة حضارية فارسية في طرق تقدير الضريبة على الأرض الزراعية. ولكن المسلمين الناشرين للإسلام، في فارس كانوا حذرين كل الحذر، وشديدي الرفض والمقاومة لكل ما هو " خصوصية حضارية " فارسية، تتعارض مع معايير الإسلام، وجوهر معتقداته، وخصائصه الحضارية المتميزة.

لقد رفضت الخلافة الإسلامية. وهي نمط متميز في الحكم. ما تميزت به مواريث الحضارة الفارسية في نظام الحكم وفلسفته السياسية التي كانت ترى رأس الدولة " كسرى " ابناً للإله " هورا مزدا "

(١) الدكتور محمد عمارة: الغزو الفكري وهم أم حقيقة، ص ٢٠٦.

يحكم باسمه، ونيابة عنه، زاعماً أن لقانونه وتنفيذه قداسة الإله والدين[1].

كذلك رفضت الحضارة الإسلامية ميراث الفرس فى النظام الطبقي المغلق لتعارضه الجذرى مع فلسفة الإسلام. في المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات والذين يقرأون مصنفات علماء الإسلام في الملل والنحل، وصراعهم الفكري مع الفرق والمذاهب غير الإسلامية، يدركون المقاومة الباسلة، التي ووجهت بها مذاهب الفرس وعقائدهم وفلسفاتهم[2].

فعلى حين فتحت الأبواب للتجارب الإنسانية العلمية، ولعلوم التمدن العلمي كان الحذر بل والمقاومة للفلسفات والمعتقدات المخالفة للمعايير الإسلامية، في السياسة أو في الاجتماع أو في الدين[3].

لقاء الإسلام بحضارة الشام، ومصر، وبلاد الشمال الأفريقي:

لقد أخذ المسلمون ينشرون الإسلام خارج الجزيرة العربية بين الشعوب التي كانت تنتظر الإسلام. ونشأت الحضارة الإسلامية فى كنف القرآن الكريم، والسنة النبوية، وكانت الأمم الداخلة فى الإسلام ذات حضارات مزدهرة، فنشأ بين حضاراتها والإسلام مزج، وتفاعل، ولقاء. وبدت أعظم مظاهر هذا المزج في النظم الاجتماعية، والآراء العقلية.

---

(١) انظر: الدكتور محمد عمارة: الغزو الفكري وهم أم حقيقة، ص ٢٠٧ – ٢٠٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٠٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٠٩.

واشترك الدعاة إلى الإسلام بأهل البلاد التى فتحت صدرها للإسلام فى الحركة الاجتماعية والاقتصادية. وبهذا كله امتزجت أمور أخرى كثيرة. وتأثرت بهذا الامتزاج كل مرافق الحياة، والنظم السياسية، والاجتماعية، والطبائع العقلية. وكانت الأمم المفتوحة للإسلام أرقى من العرب مدنية. ولهذا أسهمت في نشأة الحضارة الإسلامية.

وحضارة مصر والشام والشمال الأفريقى، كانت ذات ميراث بيزانطي. استفادت منها حضارة الإسلام في " تدوين الدواوين " وهو خبرة إدارية بيزنطية.

ويخبرنا التاريخ: أن الأمير خالد بن يزيد بن معاوية، سعى إلى مدرسة الإسكندرية يتعرف على ما فيها من تراث.

وقد كتب إلى أبيه معاوية، يبشره بنجاح سعيه، وبلوغ ما أراد. فكتب قصيدة أرسلها إلى أبيه فى هذا الشأن. يقول فيها:

أيا راكباً نحو الشآم عشيةً ... يؤم دمشقاً قف فحّمل كتابياً

وبلغ يزيدا حين يتلو رسالتي ... وقل خالداً قد نال ما كان راجياً

ألا قد ملكت الشمس والبدر عنوة ... وزرتهما من بعد طول عنائياً

وخالد بن يزيد يقصد بالشمس الذهب، وبالبدر الفضة. وكانت صناعة الكيمياء آنئذ على أساس تحويل المعادن الخسيسة إلى الفضة والذهب[1].

وبهذا بدأت حركة الترجمة للعلوم الطبيعة والتجريبية، وفنون التمدن العلمي، والتى سميت بعلوم الصنعة.

وإذا كانت الحضارة الإسلامية تفاعلت مع حضارة مصر والشام، وتبنت ما في هذه المجتمعات من المعارف، والعلوم، والتجارب الإنسانية. فإنها فى الوقت نفسه حاربت " الغنوصية " والهلينية في الفلسفة، وعارضت عقائد ومذاهب المسيحية التي أخرجتها الروح الهلينية، عن نقاء عقيدة التوحيد.

لقاء الإسلام بالحضارة الهندية:

الهند قارة تسكنها مجموعة شعوب مختلفة الأجناس، والمذاهب الدينية والفكرية، والاجتماعية، وجهود الهند فى التعليم قديمة جداً. وأكثر نتاج الهند الفكري، كتب باللغة السنسكريتية. وهي معروفة الأصول. مما ساعد على معرفة جميع نواحي الثقافة الهندية.

والباحث فى الحضارة الهندية سوف يجد أن الهنود أسهموا في جميع العلوم القديمة. وأشهر علوم الهند.

* الفلك والرياضيات: وأقدم الرسائل الفلكية هي كتاب "

---

(١) انظر: الدكتور " أحمد السايح: أضواء على الحضارة الإسلامية، ص ٨١، ط: دار اللواء، الرياض، ١٤٠١هـ.

السد هانتا" حوالى ٤٢٥ق.م ثم أبحاث " أريابهاتا "أعظم الفلكيين والرياضيين الهنود الذى علل الكسوف والخسوف في حركة الأرض حول الشمس. أي قال بدوران الأرض حول الشمس، وشرح كروية الأرض في دورتها الحيوية حول محورها كما عرف هذا الرياضي النظام العشري.

* الفيزياء والكيمياء: وجدت في الهند مذاهب فيزيائية مختلفة. وقال بعضهم: إن الضوء والحرارة ظاهرتان مختلفتان لعنصر واحد، وأن الشمس مصدر الحرارة في العالم. وفسر آخر الضوء بأنه مؤلف من ذرات صغيرة، تنبعث من الأشياء وتطرق العين. أما الكيمياء فتقدمت مع تقدم الطب الهندي والصناعة الهندية. وكان الرومان ينظرون إلى الهند، كأمهر أمة في الصناعات الكيميائية مثل: الصباغة، والدباغة، والصابون، والزجاج، ونوع من الأسمنت.

* الطب: وأشهر ما اشتهر به الهنود الطب. وكان أطباء الهنود منذ القرن السادس قبل الميلاد، يعرفون الأوعية الدموية، والأنسجة الدهنية، والضفائر العصبية، والجهاز اللمفاوى، وأنواع العضلات وحركاتها، ويعرفون تجبير العظام، ويفهمون عملية الهضم، وتطور الجنين، ويشرعون في ضرورة فحص الزوجين قبل الزواج[١] .

ولاشك أن تفاعلاً حضارياً في مختلف العلوم والفنون، قد أخذ دوره فى محيط الحضارة الإسلامية من واقع تأثرات التمازج والمخالطة. فعرف المسلمون من الرياضيات الهندية كتاب " السد

---

(١) أنور الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه، ص ٥١١– ٥١٢، ط: دار الفكر ١٣٩٣هـ.

هانتا" السند هند"[١] . وفى أيام أبي جعفر المنصور قدم كثير من علماء الهند، وكان معهم " السد هانتا " السند هند باللغة السنسكريتية.

وقد كلف أبو جعفر العلامة أبا إسحاق بن حبيب الفزارى بتعريبه. ففعل. وقام الخوارزمي بتصحيحه ومراجعته[٢] . والمسلمون استفادوا من الأرقام عند الهنود، فهذبوها وكونوا منها سلسلتين عرفت إحداهما بالأرقام الهندية وعرفت الثانية باسم الأرقام الغبارية[٣] .

فعندما التقى الإسلام بمواريث الحضارة الهندية، أخذ ما يتناسب معه، وترك مالا يتفق مع مبادئ الإسلام، مما هو خصوصية حضارية.

فالبيروني ٣٦٢ـ ٤٤٠هـ = ٩٧٣– ١٠٤٨م الذى نهض بمهام وأعباء البعثة العلمية عندما عاش بالهند أربعين عاماً عقب الفتح الغزنوى لبعض أقاليمها. والذى درس تاريخ الهند وتراثها وحضارتها دراسة العبقرى المتفرد.

البيروني هذا يعلمنا أن أسلافنا ميزوا بين العلوم الطبيعية، والعملية، والتجريبية، التي أخذوها وطوروها. وبين ديانات الهند ومذاهبها وفلسفاتها التى رفضوها لتعارضها مع التوحيد الإسلامى، ومع إلهية المصدر الديني فى الإسلام[٤] .

---

(١) الدكتور مصطفى الشكعة: معالم الحضارة الإسلامية،ص ١٣ ط: دار العلم للملايين، بيروت.

(٢) فيليب طرازى: خزائن الكتب العربية فى الخافقين، جـ ١، ص ٥٠، ط: بيروت.

(٣) الدكتور " أحمد السايح: أضواء على الحضارة الإسلامية، ص ٩٤، ط: دار اللواء، الرياض، ١٤٠١هـ.

(٤) انظر: البيروني: تاريخ الهند أو تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة، ص٨٠ بتصرف.

لقاء الإسلام بالحضارة اليونانية :

يكاد يكون معروفاً أنه : ليس فى الحضارات القديمة حضارة تثير الدهشة والإعجاب كالحضارة اليونانية، لأن هذه الحضارة جمعت آثار الحضارات البابلية، والمصرية، والفينيقية، والفارسية، ثم أضافت إليها آثاراً فنية رائعة، ومذاهب فكرية مبتكرة ومبادئ خلقية سامية، يتجلى فيها الإبداع بأقوى مظاهره.

لاشك أن للعوامل التاريخية، والجغرافية، والاقتصادية، والاجتماعية، تأثيراً فى تكوين الحضارات. ولكن هذه الأسباب لا تكفي لتفسير ما تميزت به حضارة اليونان من قوة الإبداع والابتكار.

لقد غربل اليونانيون آثار الحضارات القديمة، ومحصوها أعمق تمحيص. فحذفوا منها ما حذفوا، واستبقوا ما استبقوا. ولكن حضارتهم ليست حصيلة الحضارات السابقة فحسب. وإنما هى حضارة متميزة، أطلقت حرية العقل، وجاوزت حدود الزمان والمكان (١).

ويذكر العلماء : أن الحضارة اليونانية،عرفت باسم الحضارة الهيلينية، نسبة إلى " هيلين " الجد الأكبر الخرافي للشعب اليوناني. وقد انتشرت هذه الحضارة الهيلينية مع امتداد نفوذ الإغريق التجاري الاستعماري، ولما فتح الإسكندر المقدوني الشرق امتزجت الثقافة اليونانية بروح الشرق (٢).

---

(١) الدكتور جميل صليبا : تاريخ الفلسفة العربية، ط : دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٦م.

(٢) انظر : أنور الرفاعي : الإسلام فى حضارته ونظمه، ص ٥٠٠.

فنشأت حضارة مزيجة عرفت بالهيلينية . وأخصبت عدة مراكز في الشرق . ولما جاء الإسلام وجد في هذه المراكز حضارة يونانية فى الإسكندرية . وفي إنطاكية وغيرهما . وكان لابد لهذه الحضارة الإغريقية أن تظهر على مسرح الوجود، عنواناً على حضارة هذه الأمة الآرية، التى علمت الإنسانية جمعاء الكثير من أنماط الفكر وسياقاته .

ولكن كان لها النسق الخاص بها، والخاص بها وحدها، المتصل ببيئة المجتمع اليوناني . . ولذلك حين قام الإسلام بوضع فلسفته، المعبرة عن حضارته كان لابد من اختلاف عنيف، ومن جدل قاس، وتعارض فى المنهج، وفى المادة، بينه وبين الفلسفة اليونانية[١] .

لقد سعى المسلمون إلى ترجمة العلوم الطبيعية اليونانية، آخذين إياها من مصادرها الشرقية فى البلاد التي فتحوها . فترجموا تراث اليونان في : الطب، والكيمياء، والهندسة، والرياضيات، والميكانيكا " الحيل "، والزراعة، والمناظر، والحساب، والمنطق، وغيرها من العلوم الطبيعية، والعلمية، والتجريبية .

ولكن المسلمين زهدوا، بل انصرفوا عن نقل الآداب اليونانية لأنها كانت وثنية تتحدث عن الآلهة التي يصارع بعضها بعضاً، وفيها فوق هذا كله نقائض البشر .

فهناك ميادين في المعتقدات، والإنسانيات اليونانية، قد نفر منها المسلمون فضربوا عنها صفحاً ولم يترجموها، ولاحتى للمتخصصين

---

(١) الدكتور علي سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، جـ١، ص١٠٢، ط : دار المعارف بمصر ١٩٧٧م

من العلماء، وذلك مثل عقائد الوثنية اليونانية، وأساطير آلهتها، وآداب اليونان وفنونها[1] .

إذن استفاد المسلمون من الحضارة اليونانية في حدود " قانون التفاعل الحضاري " الذي يميز دائماً وأبداً بين ما هو " خصوصية حضارية وبين ما هو " مشترك إنساني عام" .

وإذا كان الأمر . كما ذكرت . فلماذا أعطى المسلمون وزناً كبيراً لفلسفة اليونان، ترجمة وشرحاً، حتى تضخمت آثارها، فى تراث المسلمين الحضاري . علماً بأن هذه الفلسفة اليونانية، لاتدخل فى قانون التفاعل الحضارى، ولا تناسب العقائد الإسلامية ؟ .

إن الباحث بعمق . يجد أن المسلمين حين انفتحوا على الحضارة اليونانية، أخذوا منها ما يتفق مع خصوصيتهم الحضارية . ثم واجهوا ما عند اليونان من النمط الهلينى . فى النظر والفكر والتى كانت " الغنوصية " أبرز مذاهبه في نظريات المعرفة .

كانت " الهيلينية " كما وجدها المسلمون فى البلاد التى فتحوها هي : " اليونانية الشرقية " التي امتزج فيها الفكر الفلسفي اليوناني، بروحانية الشرق، ومع هذه "الهيلينية " كانت أولى معارك الإسلام الفكرية .

حيث إن المسلمين الذين أبدعوا عقلانيتهم الإسلامية المتميزة، فأنشأوا علم الكلام الإسلامي، الممثل لفلسفة الإسلام المتميزة منذ النصف الثاني من القرن الهجري الأول . ثم اتجهوا بعد ذلك إلى

---

(١) انظر : الدكتور محمد عمارة : الغزو الفكرى وهم أم حقيقة، ص ٢١٢ .

ترجمة الفلسفة اليونانية، ترجمة عقلانية أرسطو أولاً وبالتحديد .

لا ليتخذوا منها فلسفة لهم وللإسلام، وإنما ليردوا بها كسلاح يوناني على الهيلينية وثمرتها " الغنوصية " التي هي تأثيرات يونانية مزجت بباطنية الشرق، وروحانية الشرقيين.

وأنصار الغنوصية كانوا . كمتغربي هذا الزمان من أبناء الأمة الإسلامية . أثراً يونانيّاً فى الشرق، وامتداداً شرقيّاً لفكر اليونان . فعمد العلماء إلى ترجمة العقلانية اليونانية، ليردوا بها على أنصار اليونان . وكأنهم أرادوا أن يقولوا لهم: إذا كنتم لا تحترمون إلا ما هو وافد، ومستورد، ويوناني الصنع . فها نحن نجابهكم بأرسطو المعلم الأول عند اليونان، وأبرز عقولهم الفلسفية بإطلاق، نجابهكم بالعقلية اليونانية نقضاً لغنوصية الأفلاطونية المحدثة اليونانية، استخداماً للأسلحة التي تحترمون وتعظمون[1] .

ولا يخفى أن هذه الرؤية العقلية، التى توضح سبب اهتمام المسلمين بالفلسفة اليونانية تنهض الأدلة المختلفة لتأييدها فى قوة .

فلقد كانت الهيلينية و " الغنوصية " الباطنية " . هي تغريب ذلك العصر، والغزو الفكري الذى أصاب به الغرب اليوناني الشرق، منذ انتصار الإسكندر الأكبر (٣٥٦ق.م - ٣٢٣ق.م) على الدولة الفارسية (٣٢٣ق.م) وبنائه امبراطوريته الشرقية الأولى .فلما ظهر الإسلام خاضت ضده هذه المعارك في البلاد التى فتحها المسلمون .

---

(١) انظر: الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكري وهم أم حقيقة، ص ٢١٣ بتصرف .

لكن الإسلام بعد أن بلور عقلانيته المتميزة. تقدم فاستعان بالعقلانية الأرسطية فى نضاله ضد الهيلينية والغنوص. فكانت ترجمة الفلسفة اليونانية، استعانة بحقيقة الفكر اليوناني على هزيمة صورته الشرقية المهجنة، وبسلاح معترف به من الغنوصيين[1].

ويقول المستشرق الألماني بكر كارل "هينرش" ١٨٧٦-١٩٣٩: " إننا نرى كفاح المسيحية من أجل استقلالها، وتوكيد ذاتها بإزاء الروح اليونانية المجسدة في "الغنوص" يتكرر من جديد فى الإسلام في القرون الأولى تحت أسماء أخرى.

فكما كانت المسيحية الأولى معادية للروح الهيلينية، كان الإسلام في الصدر الأول على العموم معادياً هو الآخر للروح الهيلينية. والميزة الرئيسية للقرآن هي أنه كان يؤثر تأثيراً مضاداً للروح الهيلينية، في عصر تغلغلت فيه الهيلينية، وفي اللحظة التي تخطى بها الإسلام حدود مهده الأول، بدأ الصراع والتصادم.

إن المانوية والزرادشتية كانتا بالنسبة للإسلام عدوتان خطرتان كالمسيحية وإن " غنوص " المانوية، والمذاهب الشبيهة بها كانت خطرة على الإسلام خطراً مباشراً. لذلك نرى أن أول مدرسة كلامية فى الإسلام. ونعني بها المعتزلة قد استفادت بعضاً من أصولها، ومسائل بحثها عن طريق كفاحها ضد المانوية.

وفي كل هذه الألوان من الكفاح. تكونت جبهة كفاح فريدة

---

(١) المصدر السابق، ص ٢١٤.

في بابها. فالدولة والمذهب الديني الرسمي، يسيران هنا كما يسيران في كل مكان، جنباً إلى جنب، وفي صف واحد. لكنهما في كفاحهما ضد " الغنوص " الذى لا يعترف لأحد بسلطان يهيبان بالروح اليونانية الحقيقية (الفلسفة اليونانية) كي تساعدهما.

لقد كان الغنوص، يحارب الإسلام دينيّاً وسياسيّاً، وفي هذا النضال استعان الإسلام بالفلسفة اليونانية، وعنى بإيجاد عالم من العلوم العقلية.

فالإسلام قد تحالف إذاً مع التفكير اليوناني والفلسفة اليونانية ضد " الغنوص " الذي كان خليطاً من المذاهب القائمة على النظر والمنطق وعلى مذاهب الخلاص الباطنية.

ومن هنا نستطيع أن نفسر حماسة الخليفة المأمون للعمل على ترجمة أكبر عدد ممكن من مؤلفات الفلاسفة اليونانيين إلى العربية.

وقد اعتاد الناس أن يفسروا هذا حتى الآن بإرجاعه إلى ميل المأمون إلى العلم وحبه له. إذا كانت الرغبة فى ترجمة كتب الأطباء القدماء، قد نشأت من عمل اشتهرت به المدارس الطبية الكبرى من حاجة عملية إلى هذه الكتب. فلعل ترجمة كتب " أرسطو " أن تكون قد نشأت بالضرورة عن حاجة عملية كذلك.

وإلا فإنه إذا كانت المسألة مسألة حماسة العلم، ورغبة خالصة في تحصيله فحسب. لكان " هوميروس " أو أصحاب المآسى من بين من ترجمت كتبهم أيضاً. لكن الواقع هو أن الناس لم يحفلوا بها

ولم يشعروا بحاجة ما إليها[1].

لقاء الحضارة الغربية بالحضارة الإسلامية

إن الباحث في انفتاح الغرب على الحضارة الإسلامية، يجد أن هذا الانفتاح قد تحقق من خلال:

١- نقل التراث الإسلامي فى صقلية.

ولايخفى أن المسلمين قضوا في حكم جزيرة صقيلية قرابة ثلاثة قرون، وخلال ذلك كانت الحضارة الإسلامية مزدهرة ازدهاراً شد انتباه غير المسلمين. فلما استولى الأوربيون عليها ترجموا إلى لغاتهم تراث المسلمين الحضاري المزدهر في جزيرة صقلية، مما كان له أثر واضح فى النهضة الأوربية الحديثة.

٢- نقل التراث الإسلامي في بلاد الأندلس:

إن المسلمين استطاعوا في قوة أن يقيموا حضارة الإسلام في بلاد الأندلس، وأصبحت بلاد الأندلس في ظل الحكم الإسلامي، بلاد الحضارة والعلم. مما جعل علماء أوربا يذهبون إليها ليتلقوا العلم على يد علمائها، ويترجمون تراثها من العربية إلى اللاتينية.

لقد كانت قرطبة في عهد عبد الرحمن الثانى، مركزاً رائعاً للجمال المادي والنشاط الفكري.. ونما ذلك في عهد عبد الرحمن الثالث., وكان شديد العناية بالعلوم والآداب، وتزايدت هذه النهضة في عهد ابن الحكم الثاني الذي كان إلى جانب عمله يرسل

---

(١) بكر كارل هينرش: التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، ص ٧-٩، ترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوى، ط: القاهرة ١٩٦٥م.

مندوبين إلى جـمـيع بقـاع العـالم الإسـلامي لابتـيـاع الكتب أو استنساخها. ووفق بذلك إلى إنشاء مكتبة تضم أربعمائة ألف كتاب.

وإذا كـانت قرطبة، وغرناطة، وغيرهما من مدن حضارية. قد سـقطت في أيدي غيـر المسلمين. فـإن العلوم والآداب الإسـلامـيـة والحضارة واصلت ازدهارها في ظل النقل والترجمة والإبداع.

٣- نقل التراث الإسلامي أثناء الحروب الصليبية.

كانت الحروب الصليبية صراعاً بين الكنيسة والشرق الإسلامي. وهدف هذه الحروب تخليص الأراضي المقـدسـة من المسلمين. وقـد استمرت هذه الحروب قرنين من الزمان.

ومن المؤرخين من يرى أن هذه الحـروب هي العـامل الوحـيـد في تقدم أوربا، حيث تم نقل الصناعات والفنون الإسلامية.

ويرى بعض العلمـاء: أن الشـرق الإسـلامي قـد أثر في الغـرب المسيحي إبان الحروب الصليبية من أربع نواح هي:

١- فى الكنيسـة البـابوية. إذ قـامت في بيت المقـدس عـام ١١٠٠م مملكة دنيوية بدلاً من " الثيوقراطية " الدينية التي كان يحلم بها البابا.

٢- كما أثرت الحروب في الحياة الداخلية والاقتصادية، في جميع الممـالك. إذ نشـأ نوع جـديد من الضـرائب على ممتلكات الأشخاص. كما ساعدت تلك الحروب على الإقلال من أراضي الأشراف.

٣- كما أثرت الحروب فى العلاقات الخارجية للدول ونظام أوربا، بتأثيرها في الكنيسة من ناحية، وبإيجاد رابطة جديدة للوحدة الأوربية من ناحية آخرى.

٤- كما أثرت تلك الحروب في العلاقات القائمة بين أوروبا وأسيا فنهضت حركة الارتياد والرغبة في الاستزادة من المعلومات[١].

لقد اختلط الأوربيون بمن هم أرقى منهم فاستفادوا من الحضارة الإسلامية، فساعد هذا على قيام النهضة الأوروبية الحديثة. إن أوروبا استطاعت أن تتفاعل مع الحضارة الإسلامية وتأخذ عنها، وتستفيد منها فيما هو " مشترك إنساني عام، أما ما كان من خصوصية للحضارة الإسلامية، فقد رفضها الغرب.

لقد أقبل الغرب بنهم على امتلاك رصيد الحضارة الإسلامية من العلوم الطبيعية: علوم المادة وظواهرها، وخصائصها.. وعلوم التمدن المدني والعلمي، مثل: علوم الطب، والصيدلة، قواعد النظافة العامة والخاصة، وعلوم الزراعة، والنباتات، والحيوان، والفنون، وعلوم الحرف، والصناعات، والتجارة، والمواصلات، ووسائل الاتصال، وفنون القتال، واستخدامات الحرب، وطبقات الأرض وأنواعها، والمعادن، والبصريات، والمناظر، والكيمياء، والفلك، والرياضيات(من جبر، وهندسة، وحساب) والجغرافيا، والرحلات، وعلوم البحار، والملاحة فيها.. وغير ذلك من علوم وفنون[٢].

---

(١) انظر: الدكتور " توفيق الطويل: الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية، ص ١٦٧، ١٦٨ بتصرف.

(٢) انظر: الدكتور " محمد عمارة: الغزو الفكري وهم أم حقيقة، ص ٢٤٨.

لقد أخذ الغرب، ما سبق أن أخذناه نحن، عن أسلافهم اليونان، وغيرهم من الفرس والهنود، وما أخذناه من مدرسة الإسكندرية من علوم الصنعة. مضافاً إليه إبداع المسلمين.

لقد أخذ الغرب، من الحضارة الإسلامية، ما هو: مشترك إنساني عام " وترك من الحضارة الإسلامية، ما هو خصوصية حضارية إسلامية.

لقد أجمعت تيارات فكر النهضة الغربية على رفض أبرز خصائص الحضارة الإسلامية. وهي خصيصة " التوحيد " وخصيصة " الوسطية " وخصائص أخرى كثيرة تتصل بالإسلام، وعقائده.

ورفض الغرب لهذه الخصائص الإسلامية، هو الذي ميز الحضارة الغربية بطابعها الأصيل: الطابع المادي.

* فالحضارة الإسلامية قامت بعملية توفيق ما بين الحكمة والشريعة، ولكن الحضارة الغربية تميزت بإخراج الدين من إطار العقل، كما أخرجت الدنيا والدولة وعلوم التمدن من إطار الدين.

* والحضارة الإسلامية ربطت بين الدين والدولة، والحاكم والمحكوم، والحضارة الغربية فصلت بين الدين والدولة في خصوصية حضارية فكانت العلمانية.

* الحضارة الإسلامية وفقت بين الفرد والمجموع فى ربط متناسق، أما الحضارة الغربية فقد انحازت للفرد في " ليبرالية " واضحة.

* والحضارة الإسلامية ربطت الأعمال بالحكمة منها. والوسائل بأخلاقيات الغايات المبتغاة من ورائها. أما الحضارة الغربية، فكان

اهتمامها قائماً على اللذة والشهوة اللحظة. وكانت سياسة الحضارة الغربية تعنى " بالميكيافيلية " : " فن الممكن من الواقع بصرف النظر عن الأخلاق ".

ـ والحضارة الإسلامية وازنت بين سيادة الله وحاكميته، وبين سلطان الأمة وسلطاتها، في حين كانت الحضارة الغربية تقوم على أن الإنسان سيد الكون يفعل ما يشاء[1].

إذن وبكل تأكيد : هناك ما هو : " مشترك إنسانى عام " تأخذه الحضارات من بعضها وتساهم فيه كل حضارة بالعطاء المتجدد، الذى يزيده قوة وفائدة.

وهنا ما هو خصوصية حضارية، لا تقبل الحضارات الآخذة أن يكون ضمن المأخوذ. ونجد ذلك واضحاً في أعمال أوربا الناهضة، فحينما ترجمت أعمال الفيلسوف المسلم ابن رشد. أخذت من هذه الأعمال ما يتصل بالفلسفة اليونانية، ورفضت أخذ ما هو خصوصية حضارية إسلامية.

فالرشدية اللاتينية التى أخذتها أوروبا هى شروح ابن رشد على أرسطو حكيم اليونان، أما إبداع ابن رشد الفيلسوف المسلم والمتكلم والقاضى والفقيه والذي تمثل في مؤلفاته : " فضل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال "، و" تهافت التهافت"، و " مناهج الأدلة " فقد رفضته أوروبا رفضاً تاماً.

---

(١) انظر : الدكتور " محمد عمارة : الغزو الفكرى وهم أم حقيقة، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ بتصرف.

ويقول الفريد جيوم: " إن علينا أن نضع حداً فاصلاً بين ابن رشد فيلسوف وابن رشد كشارح لأرسطو[1] "

وإن كانت الحضارة الغربية قد رفضت منذ البداية الرشدية الإسلامية، كما تمثلت في مؤلفات ابن رشد الإبداعية، فإن الحضارة الغربية قد رفضت أيضاً إضافات ابن رشد التى تخللت شروحه على أعمال أرسطو. ونهض بهذه المهمة القديس " توماس الأكوينى " (١٢٢٥ – ١٢٧٤م)، ولذا نرى الجامعات الغربية تتبنى أرسطو في ذات الوقت الذى تحرم فيه فكر ابن رشد، وتحكم بالكفر على مائتين وتسع عشرة مسألة تمثل إضافات ابن رشد على الشروح التى قدمها لأعمال حكيم اليونان[2] .

ومما لا يحتاج إلى بيان أنه كلما استلهمت الحضارات " ما هو مشترك إنسانى عام "، تقدمت الحضارات، واستفادت، وازدهرت، وانتشر الأمن.

التفاعل الحضارى:

والتفاعل الحضارى ضرورة إنسانية، لابد منها لقيام الحضارات، وتقدم الإنسان في كل ما من شأنه أن يأخذ بيد الإنسان، ويشيع في المجتمعات الإنسانية السلام والأمن.

وإذا تأملنا في حال الأمة الإسلامية وجدنا أنها. من وجهة نظرنا. محاصرة بين غربتين: غربة زمان، وغربة مكان.

---

(١) المصدر السابق، ٣٦٠، ٣٩٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٦٠، ٣٩٤.

أما غربة الزمان، فهي: بعد الأمة عن ماضٍ حضاري مشرق، لم تعد تربطها به عوامل الثقافة الفاعلة أو البانية.

وأما غربة المكان، فهي: بعد الأمة عن واقع حضاري معاصر، تجهل عنه كل شيء مما مثل فجوات حضارية كبرى ليس من السهل على الأمة الإسلامية تجاوزها أو تجاهلها.

ولذلك إذا كان لابد لهذه الأمة، أن تعود إلى التفاعل الحضاري، وتسفيد من حضارات الإنسانية، كان لابد من خروج الأمة الإسلامية من الاغتراب الزماني والاغتراب المكاني، وذلك بالربط بين الواقع والثوابت الحضارية الإسلامية، وبين مصادر وعوامل التقدم المعاصر.

وليس هناك من وسيلة للربط غير الدين، والعلم، والحياة، في إطار من حرية الفكر، وسياسة عقلانية للتقدم، وتسامح مستنير [١] فإن فعلت الأمة ذلك كان ذلك بداية في طريق حضاري.

وإن التقدم البشري في مختلف المراحل والمجالات ليس إلا حصيلة الإبداع الفكري والتعاون، والاحتكاك بين المجتمعات.

ولا عيب أن نأخذ من حضارات الأمم ما يفيدنا، ولكن العيب أن نظل عالة على أمم الأرض نأخذ منها ولا نعطي.

---

(١) الدكتور محمود قمبر: هدفية العلم في الإسلام، مجلة حولية كلية التربية، عدد رقم ٨، ص ٦٣ سنة ١٤١١هـ - ١٩٩١م، كلية التربية، جامعة قطر.

ويجدر بنا أن ندرك أن الانغلاق ليس بالموقف اللائق بالعقلاء، ولا التبعية الحضارية بمفيدة، أو ملائمة. لمن يمتلكون خصوصية حضارية إسلامية.

والعزلة الحضارية والجهل صنوان، كلاهما تخلف، وكلاهما حجاب يمنع وصول الضوء، وكلاهما عقبة كأداء في طريق التطور والتقدم.

ويكاد يكون مؤكداً: أنه لا توجد حضارة قامت بذاتها، واكتفت بذاتها مستغنية عن غيرها، وإنما هي نتيجة تطور حضاري دائم، وتفاعل بين حضارات أخرى. تفاعلت هي بدورها وغيرها من الحضارات في الزمان والمكان.

والنمو الحضاري إنما يعتمد على التجارب الحضارية الأخرى، وكلما ازدادت فرص الالتقاء والتفاعل بين الحضارات ازدادت فرص الحياة والنمو والاكتساب والتعلم.

والأمة الإسلامية وهي تتطلع إلى مستقبل مشرق، لابد وأن تخوض معركة بناء الذات وتجديدها مسوقة بقيم وأفكار ومواريث لها في وعيها فاعليتها القوية.

ولا يخفى أن الأمة الإسلامية تملك رصيداً ضخماً من القيم الهادفة وتوجيهات الإسلام.

وهذه القيم كفيلة عند استثمارها بأن تجعل الأمة الإسلامية في

وضع يسمح لها بأن تنمي فلسفتها الحضارية الإنسانية، وتتسابق مع أمم الأرض في بناء حضارة إنسانية.

ومما هو معروف أنه ليس كل عمل يصدر من الإنسان يسهم في الحضارة الإنسانية، وإنما ذلك العمل الذي ينمي الحضارة وينطلق من الإنسان للإنسان.

المبحث الثالث

الغرب في التصور الإسلامي

بداية لابد أن ندرك : أن الثقافات العالمية بدأت تتلاقى . نتيجة ثورة وسائل الاتصال والانتقال .

فالجهل المتبادل بالآخر على مستوى العالم لم يعد قائماً .

كما أن الحواجز بين الشعوب والثقافات سقطت .

وصار الناس في أجزاء مختلفة من العالم يتعرفون على بعضهم فيكتشفون أوجه الاختلاف والاتفاق .

كذلك هناك الإحساس المتبادل بين المجتمعات الإنسانية بوجود أخطار مشتركة على العالم كله تتجاوز حدود الثقافات والعقائد الدينية والقوميات . مثل أخطار العنف في العالم، ونفاد الموارد خصوصاً المياه، وتدمير البيئة نتيجة الإسراف في التصنيع[1] .

وجاء في تمهيد كتاب : " الإسلام والمسيحية " لأليكسي جورافسكي : أن دوامة الحياة الإنسانية المعاصرة . تشكل في الواقع إحدى السمات الكبرى لعصرنا الحاضر .

فالنمو المتصاعد للثقل النوعي للبلدان النامية في الاقتصاد العالمي، وفي السياسية الدولية، ونهضتها الثقافية التجديدية سواء المرتبطة بتعرفها خصائص الثقافة العالمية وقيمها .

---

(١) راجع الدكتور أحمد كمال أبو المجد : الاتجاه إلى حوار إسلامي غربي، جريدة الحياة، الجمعة ٢١ مارس ١٩٩٧م، ص ١٨ .

أو بتنشيط التراث الثقافي التقليدي لهذه البلدان وإحيائه مجدداً، والتأثيرات المتسارعة لمنجزات الثورة العلمية التقنية.

وعلميات الهجرة إلى قارات ومجتمعات أخرى، وتطور وسائل المعلومات والاتصال الجماهيري.

والسياحة العامة على نطاق جماهيري، كل هذه المعطيات غيرت وجة العالم وغيرت رؤية الناس وإدراكهم لهذا العالم الجديد أيضاً.

بالإضافة إلى ذلك فإن تطور العلم الذي أسهمت فيه العلوم الإنسانية إسهاماً كبيراً خاصة في ميادين: التاريخ، والأنثرغرافيا، والأنتروبولوجيا، وعلم النفس. أغنى كثيراً الرصد العقلي للإنسانية جمعاء. بحيث ساعد بدوره على تكون نمط جديد من التفكير، وظهور أساليب وطرق متجددة مبدعة في دراسة الكون، ومشكلات العامة من زاوية إنسانية شمولية[(١)].

وقد لا يخفى على باحث أن: ابتعاث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان منعطفاً تاريخيّاً في حياة الناس جميعاً، وتحولاً حضاريّاً متميزاً في نهج حياتهم وتعاملهم، تحول الخطاب فيه من قومية الأديان ومحدودية مقاصدها، إلى عالمية الإسلام وشمولية دعوته وتكامل مقاصده، من عزلة المجتمعات البشرية وتضادها وتصارعها إلى وحدة الأسرة البشرية وتعاون مجتمعاتها.

حيث سمع الناس لأول مرة في تاريخهم الإنساني فكرة المجتمع

---

(١) اليسكي جورافسكي: الإسلام والمسيحية، ص ١٨ عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٦م.

الإنسـاني الواحـد " يا أيهـا الناس إن ربكم واحـد وإن أباكم واحـد كلكم لآدم وآدم من تراب " .

كما سمعوا أيضاً لأول مرة فكرة التعايش السلمي بينهم من غير تمايز بينهم على اختـلاف أقـوامـهم وأجناسـهم وأعـراقـهم وأديانهم وأوطانهم [(١)] .

وكـان النبي –صلى الله عليـه وسلم –يعـمل على نشـر الإخـاء الإنساني الذي يتجاوز المسلمين إلى غير المسلمين. لذا نجد الرسول يعقد مع اليهود حلفاً أساسه التعاون على الخير، وحماية الفضيلة، ودفع الأذى، وحـمـاية المدينة من كل اعـتـداء، ومنع الظلم، وردع المجرمين العابثين بالأمن، وأكـد النبي – صلى الله عليـه وسلم – ذلك بالمواثيق.

والإسـلام الحنيف لا يكتـفي بمحـو أسـبـاب التـفـرق والنزاع بين الناس بل يدعـو إلى التـسـامح العـام لأن التـسـامح يداوي القلوب المكلومة، ويجتذب النفوس النافرة.

فالإسلام منهج للناس جميعاً، ومقاصده لخيرهم وفلاحهم، وخطابه لهم على اختـلاف أقـوامـهم، وأجنا سـهم، وأعـراقـهم، وأديانهم.

فهو تحول حضاري شامل ينتقل بالناس من ضيق القوميات، والأعراق، والأجناس، إلى سعة الأسرة البشرية، وتعاون مجتمعاتها

---

(١) راجع الدكتور محمد أحمد الرفاعي : الإسلام والنظام العالمي الجديد، ص ٦٧–٦٩ بتصرف واختصار، ط : كتاب دعوة الحق رقم ١٤٦، رابطة العالم الإسلامي، صفر ١٤١٥ هـ، مكة المكرمة.

في إطار منهجية المجتمع الإنساني الواحد، وفي إطار منهج التعاون بين الناس جميعاً على أساس من قيم ربهم [(١)] ولاشك أن للغرب وحضارته علاقات ولقاءات بالمسلمين وحضارتهم على مدى التاريخ. وقد يكون مفهوماً لدى الباحثين أن المصالح الاقتصادية، والعلمية، والتقنية، تتداخل لدرجة أن المصالح السياسية أحياناً تبدو متشابكة بل ومشتركة في بعض الميادين.

ومما لايخفى أن الإسلام قدم نظرة شاملة للكون والحياة، والإنسان، وأن هذه النظرة تبقى أساسية وصالحة للبشر في كل زمان ومكان.

وهذه النظرة تشمل الأخلاق، والاقتصاد، والاجتماع، والسياسة، ومن هذه المنطلقات قامت الحضارة الإسلامية على مبدأين مهمين: هما التغيير والاستشراف.

ولعل فواتح كتب الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى إمبراطور الروم وكسرى الفرس توضح هذين المبدأين.

فقد جاءت في رسائل الرسول – صلى الله عليه وسلم – بعد المقدمة: " ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾ [**آل عمران**: ٦٤].

وهذه الآية الكريمة جاءت لتقرر مبادئ إسلامية في علاقات المسلمين بالغرب.

---

(١) د. حامد أحمد الرفاعي: الإسلام والنظام العالمي الجديد، ص ١٤٤.

* مبدأ الاعتراف بالآخرين.

* مبدأ الحوار وأهميته.

* مبدأ احترام المشيئة الذاتية لدى الآخر.

* مبدأ استشراف المستقبل في ظل علاقات إنسانية سامية.

وفي تاريخ التفاعل المتبادل بين الشرق الإسلامي والغرب .لعبت العلاقات الإسلامية المسيحية دوراً خاصاً.

فالمسيحيون والمسلمون على حد سواء. كانوا يتصفون دائماً بإدراكهم الرابطة الروحية المشتركة – وإن كانت محدودة الأبعاد– وفي الوقت نفسه كانوا يدركون الاختلاف الجوهري بالنسبة لخبراتهم في المجال الثقافي الإيديولوجي.

وبدءاً من انتشار الإسلام، ونشوء الخلافة الإسلامية ظهر التضاد الديني الأيديولوجي بين الغرب والمشرق العربي، ولكن عملية التواصل الثقافي بين الإسلام والغرب لم تنقطع كلياً[1].

وإذا كان الإسلام يدعو إلى الحوار مع الغرب، واللقاء بالغربيين. فقد كان هناك لقاء عملي تم بين الشرق الإسلامي وبين الغرب المسيحي من خلال المؤسسات العلمية التي قامت في الأندلس.

حيث جاء أبناء الغرب من الجزر البريطانية، ومن فرنسا، وألمانيا، والأراضي المنخفضة وغيرها. يأخذون عن المسلمين علومهم، وعادوا بها إلى بلادهم حيث استطاع الغرب بذلك أن يؤسس نهضة صناعية وزراعية.

---

(١) اليكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية، ص ٢٧.

وقد أرسل الملك جورج ملك بريطانيا، وفداً من بنات الأشراف الإنجليز مكوناً من ثماني عشرة فتاة برئاسة ابنة أخيه الأميرة: " دوبونت " .

ورافق الوفد أحد كبار موظفي القصر الملكي البريطاني وهو النبيل "سيف ديك" ومع الوفد هدية ثمينة للخليفة.

وجاء في رسالة الملك جورج إلى الخليفة الأموي بالأندلس بعد مقدمة ودية: "لقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضها الصادي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة. فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج من هذه الفضائل، لتكون بداية في اقتفاء آثاركم لنشر أنوار العلم في بلادنا. وقد أرسلنا ابنة شقيقنا الأميرة (ديونت) على رأس بعثة من بنات الأشراف الإنجليز، لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم، وحماية الحاشية الكريمة، وعطف اللواتي سيتوفرون على تعليمهن، وقد أرفقت الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة، لمقامكم الجليل، وأرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص " .

وعند وصول البعثة أمر الخليفة باستضافة جميع أعضائها والمرافقين في قصره وإحاطتهم بكل الضيافة، وتخصيص نفقة مالية لكل منهنّ من بيت مال المسلمين. وبعث الخليفة هشام السادس آخر الخلفاء الأمويين في الأندلس بخطاب جوابي إلى الملك البريطاني جاء فيه:

لقد اطلعت على التماسكم فوافقت على طلبكم بعد استشارة من يعنيهم الأمر. أما هديتكم فقد تلقيتها بسرور زائد وبالمناسبة أبعث لكم بغالي الطنافس وهي من صنع أبنائنا وهدية لحضرتكم

وفيها المغزى الكافي للتدليل على اتفاقنا ومحبتنا والسلام[١].

والمتأمل – أعماقاً وأبعاداً – في علاقة المسلمين بالغرب – يجد أن المسلمين عندما شعروا بالتأخر الذي أصاب بلادهم بعد سقوط الخلافة العثمانية، وجدوا أن الفرصة مناسبة لتعلم علوم الغرب، ولذا كانت هناك محاولات تطويرية قامت في مصر على يد محمد على، وامتدت بعد ذلك إلى كثير من بلاد المسلمين.

وقد سافر بعض الشبان المسلمين إلى أوروبا، وأخيراً إلى أمريكا. لطلب العلم حيث استطاع كثيرون أن يكسبوا علوماً، ونظماً، وطرائق، في مجالات الفيزياء، والكيمياء، والرياضيات، والطب، والتربية، والإدارة، والعلوم الإنسانية، وعادوا إلى بلادهم يدعون إلى التقدم في مجالات الطب، والزراعة، والصناعة، والتعليم، والتنظيم الإداري[٢].

ومن المسلم به أن علاقة الإسلام بالغرب هي علاقة إنسانية تدفعها الرغبة في العيش الكريم، والسلام الشامل، بين جميع الناس.

ولقد اعتبر الإسلام الإنسان هو المخلوق المكرم على سائر مخلوقات الله. وتكريم الله للإنسان يبدو واضحاً جلياً. ويصحب الإنسانية كلها منذ أبيها آدم، وسيظل معها إلى أن تلقى ربها.

وهذا التكريم يشمل جوانب هذا المخلوق كلها. حيث خلقه الله

---

(١) د. سعيد عطية أبو عالي: الإسلام والغرب حوار لا صراع، ص ١٣–١٥، ط: كتيب المجلة العربية رقم ١، العدد الأول محرم ١٤١٨هـ، مايو ١٩٩٧م السعودية.

(٢) المصدر السابق، ص ١٥.

في أحسن صورة، وأكمل هيئة، ثم كان ترشيحه ليكون خليفة في الأرض يعمرها ويستخرج كنوزها ويظهر فضل الله على عبادة فيها.

إن الإنسان في نظر الإسلام يستحق هذه الكرامة الإنسانية بمقتضى كونه إنساناً لا للونه، ولا لجنسه، ولا لكونه شريفاً، أو ذا حسب أو ذا جاه، بل لكونه إنساناً فقط.

قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ [**الإسراء**: ٧٠].

وهذا التكريم ليس خاصّاً بإنسان دون آخر، ولا بلون دون أخر، إنما الجميع سواء في حق التكريم الإنساني[1]. لقد جاء الإسلام ليضيء آفاق الحياة أمام الناس، ويمحو من دنياهم الظلام والضلال.

وكان من عناية الله بالإنسان أن استخلفه على أرضه، واستلهمه أسرارها، وهيأه بالاستعدادات والقدرات التي تمكنه من القيام بواجبه، والاضطلاع بمهامه.

ولقد تضافرت رسالات السماء منذ أن استنارت الأرض بنورها على تحري ساحة الحياة.

وإذا كان الإسلام يحترم الغرب من واقع المعاني الإنسانية. فإن الإسلام الحنيف من جهة أخرى جامع للرسالات كلها، مشتمل على غايتها ولبها.

فالإيمان بالرسل السابقين جزء من العقيدة الإسلامية، كما في

---

(١) دكتور عبد الرحمن عمر الماحي: دعائم العلاقات الإنسانية في الإسلام، مجلة المنار الإسلام، صفر ١٤١٨هـ، ص ٧، الإمارات.

كثير من الآيات[١] . فالإسلام إذاً هو الدين الجامع، وهو آخر أدوار الرسالة الإلهية، وهو الجامع بينها .

والإسلام كذلك دين الوحدة الإنسانية الجامعة . فالناس جميعاً سواء بالنسبة للأحكام الإسلامية وهو يقرر الوحدة بأصل التكوين فيقول سبحانه وتعالى :﴿ **وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا** ﴾ [**يونس** : ١٩] .

ويقول سبحانه وتعالى :﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ** ﴾ [**البقرة** : ٢١٣] .

فكان الاتحاد في أصل التكوين من حيث اتحاد الغرائز، والاتجاهات الإنسانية سبباً في الاختلاف لأن آحاد الناس يتنازعون استجابة لغرائز كل واحد منهم . إذ أنه حيث استجاب كل واحد لغرائزه تصطدم إرادته مع إرادة الآخر الذي استجاب هو أيضاً لغرائزه . فيكون التناحر حيث تصطدم الشهوات، وتتنازع الإرادات . وكل يحب لنفسه الاستيلاء على أكبر قدر من المطالب، والوصول إلى أقصى ما يحب من الغايات

ولذلك كان لابد من فاصل يرسم الحدود، ويقيد الغايات لتتلاقى في خط مستقيم من غير انحراف ولا تقاطع، بل يكون لكل خط مواز لخط أخيه، وكل الخطوط تنتهي إلى خدمة الجماعة الإنسانية، وبذلك تحدد الغايات والأهداف[٢] .

---

(١) سورة البقرة، الآية رقم ١٣٦-١٣٧، ١٧٧ .

(٢) الشيخ محمد ابو زهرة : المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، ص ٢١ من كتاب التوجة الاجتماعي في الإسلام، ج ٢ ط : مجتمع البحوث بالأزهر ١٣٩١ هـ.

ولقد جعل الإسلام اختلاف الناس شعوباً وقبائل للتعارف والتعاون لا للتباغض والتنازع. ولذلك قال سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [**الحجرات**: ١٣].

فاختلاف الشعوب له غاية جليلة أرادها الله سبحانه وتعالى وهو التعارف وهذا التعارف له ظواهر:

الظاهرة الأولى: اللقاء على مودة وتراحم في أمن وسلام.

الظاهرة الثانية: التعاون على أن ينتفع الإنسان بكل خيرات الأرض.

والظاهرة الثالثة: تكريم الإنسان في هذه الأرض(١).

وقد لايخفى على أهل العلم: أن التعارف يقود إلى التعاون المستمر البناء الذي يفيد الإنسانية كلها.

إن منهج القرآن يعلم المسلمين، ويؤكد عليهم: أن البشرية مدعوة بأمر ربها جل شأنه – للتعارف، والتعايش، وفق القيم، والمعايير الربانية على اختلاف أجناسهم وأعراقهم، وأديانهم، وألوانهم.

وإن إتيان الحق، ومجانبة الباطل هو أساس التنافس بينهم، وهو أساس معيار القرب والبعد من تقوى الله ومرضاته. قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [**الحجرات**: ١٣] إن الإسلام الحنيف يؤكد أن أساس دين الله تعالى يقوم على إقامة العدل بين

---

(١) الشيخ محمد أبو زهرة: المجتمع الإنساني في ظل الإسلام ج ٢، ص ٢ من كتاب التوجيه الاجتماعي في الإسلام.

الناس والعدل حق للناس أجمعين، وأساس الأحكام الإسلامية المنظمة لعلاقات الناس جميعاً بعضهم مع بعض أحاداً وجماعات هو العدل[1].

قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [**النحل**: ٩٠].

إن الإسلام يقر مشروعية التدافع الإنساني، ومنهجية التدافع بين الناس قائمة على أساس التنافس في جلب المصالح ودرء المفاسد مما يوفر للمجتمعات الإنسانية الأمن والاستقرار، وهذا مؤكد في قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [**البقرة**: ٢٥١].

ومن جهة أخرى فإن التدافع بين الناس يؤدي إلى حماية حريات الناس في معتقداتهم وأنماط حياتهم، وصيانة معابدهم على اختلاف مللهم وهذا في قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا**﴾ [**الحج**: ٤٠] ومن مفاخر الفقه السياسي في الإسلام، أن الشرائع جاءت لتحقيق مصالح العباد حيث إن مبناها يقوم على تحقيق أكمل المصلحتين ودفع أعظم المفسدتين.

إن مبادئ الإسلام وقيمه تعلم المسلمين وتؤكد عليهم احترام وتقدير كل عطاء خير في ميادين القيم والسلوكيات، وفي ميادين الماديات، والوسائل والمهارات.

---

(١) الإمام محمد أبو زهرة: العلاقات الدولية في الإسلام، ص ٣٤، ط: دار الفكر العربي.

إن الإسلام مثلما وضع ثوابت ومنطلقات، وقدم قيما ومبادئ كلية لضبط أدبيات ومقومات التعايش البشري، والتعارف الإنساني، فإنه وضع أيضاً ثوابت ومنطلقات، وقدم قواعد وأسساً لضبط حركة مصالح الناس، وقدم قيماً وأدبيات لأحكام السيولة تبادل المنافع بين المجتمعات الإنسانية في إطار التعايش والتعارف (١).

إن الإسلام باعتباره منهجاً حضاريّاً قد جعل مقاصده الحضارية المادية، والقيمية من أجل تحقيق كليات مقاصد الشريعة الإسلامية المتمثلة في الضرورات الأنسانية التالية وحاجياتها.

١- حفظ النفس.

٢- حفظ الدين.

٣- حفظ العقل.

٤- حفظ العرض.

٥- حفظ المال.

إن المسلمين وفق الثوابت والمنطلقات يجدون أنفسهم في كل وقت مؤهلين لأداء مهمتهم، ومساهمتهم الإيجابية الفعالة. في معترك التدافع الإنساني. لإنهاء حالة القلق والذعر: التي تحيط بالناس، وإزالة عوامل الاضطراب، والجشع، والاصطراع السياسي، والاقتصادي، بين الأمم، وضبط حركة التدافع الإنساني وإقامة موازين القسط للتعايش، والتعاون البشري.

---

(١) راجع الدكتور، حامد أحمد الرفاعي: الإسلام والنظام العالمي الجديد، ص ١٢٩-١٣٤ بتصرف.

بما يرتقي بمنهجية التبادل والتكامل الثقافي ويحقق للناس تطلعاتهم لحياة إنسانية مطمئنة تنعم بالأمن والاستقرار، والعدل والسلام.

ومن المؤكد: أن علاقة الإسلام بالغرب هي علاقة إنسانية تدفعها الرغبة في العيش الكريم، والسلام الشامل بين جميع الناس، سيما وأن المسلمين يملكون حضارة هي في أساسها ومقوماتها حضارة إنسانية.

وإن وجود أقليات إسلامية في المجتمعات الأخرى، وفي الغرب بالذات، يساعد المسلمين على تحقيق حوار حضاري، وذلك بأن تكون الأقليات عنصراً فاعلاً في النسيج الاجتماعي في كل بلد تعيش فيه هذه الأقليات، وذلك من خلال الإخلاص في العمل والصدق في القول والوعد، والمبادرة إلى فعل خير للأخرين، وإشاعة روح المودة في المجتمع الذي يعيشون فيه، واحترام عقائد الآخرين [1].

كذلك المراكز الثقافية الإسلامية تؤدي دوراً كبيراً في تقريب وجهات النظر.

ولابد أن نمد يد الصداقة لمؤسسات ومعاهد وجامعات في الغرب تعنى بدراسة التراث الإسلامي وطريقة التفكير لدى المسلمين. مثل جامعة هارفارد، وجامعة بيل في أمريكا، وكامبردج، وأكسفورد، وجامعة لندن في بريطانيا، والسوربون، ومعهد العالم العربي في فرنسا.

---

(١) د. سعيد عطية أبو غالي: الإسلام والغرب، ص ٢٨-٣٠.

وقد ظهر عدد من القيادات الغربية يتحدثون عن الإسلام ويحاولون أن يتحدثوا عنه بإنصاف، وفي مقدمتهم سمو الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا.[1]

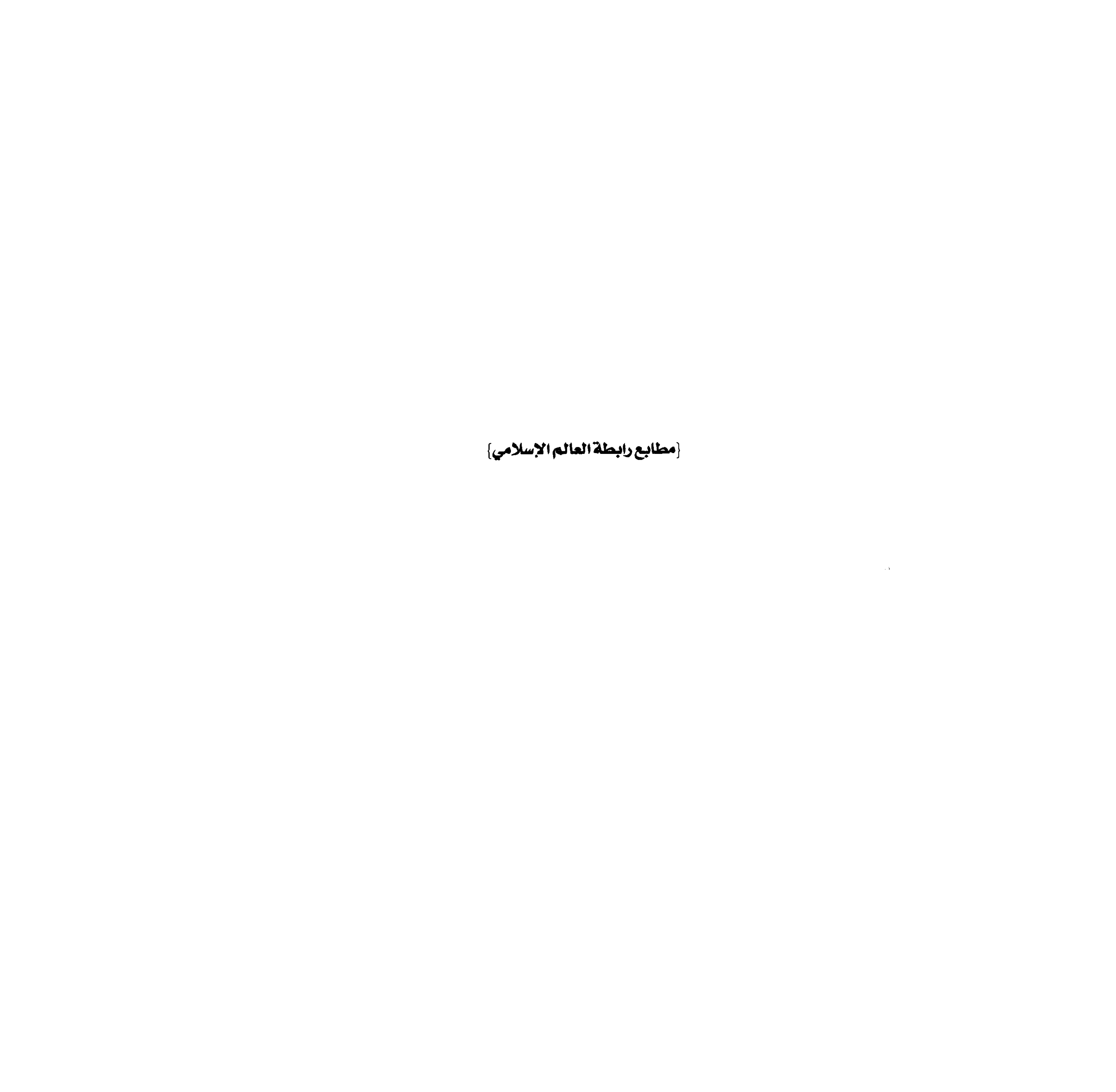
ولهذا كان على أمتنا الإسلامية أن تنظر إلى الغرب من خلال فقه العلاقات الدولية، وفقه المصالح الإنسانية المشتركة، وفقه التعايش البشري، مع التنوع في الأديان والأعراق والأجناس. في إطار التدافع والتنافس الإنساني لتحقيق المصالح، وصرف الفساد عن الأرض: وفق منهجية السياسات الشرعية لفقه الأولويات، وفقه الموازنات، وفقه المصالح، وفقه الضرورات، وفقه الرخص والعزائم وغيرها.

وإذا تم النظر إلى الغرب من خلال هذه المعالم أدركنا أن هناك عناصر اتفاق، وإحساس مشترك يكونان في النهاية بنية أخلاقية تحتية لحركة المجتمع الإنساني.

---

(١) د. حامد أحمد الرفاعي: الإسلام والنظام العالمي الجديد، ص ٥٧.

الفهـــــــرس



{مطابع رابطة العالم الإسلامي}